المكتبة الإشتراكية

ستالين

المادّية الدّيالكتيكيّة والمادّية التاريخيّة



إهـــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

المادية الديالكتيكية
والمادية التاريخية



المكتبة الاشتراكية

ستالين

المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية

دار دمشق
للطباعة والنشر

نظرة عامة
في تطور المعرفة البشرية
خلال التاريخ

حاول الفكر الانساني منذ عهود أقدم الفلاسفة الاولين ، تفسير الوجود ، وتكوين فكرة عامة عن الكون وعن المجتمع البشري ، وكانت أفكار كل عصر تعكس الظروف السائدة . ولكن اذا كان المفكرون والفلاسفة ، في كل مرحلة من مراحل التاريخ ، لم يستطيعوا ان يتجاوزوا الحدود التي رسمها لهم عصرهم (رغم ان كلاً منهم كان يعتقد انه كشف عن الحقيقة النهائية الابدية) فان ذلك لا يناقض هذه الحقيقة الخطيرة وهي ان معرفة

العالم خطت خلال العصور المتعاقبة ، وخلال اكداس وأكوام من الاخطاء والاوهام ، خطوات كبرى الى الامام من جيل الى جيل .

واذا القينا نظرة عامة على تطور المعرفة البشرية خلال التاريخ ، بخطوطها الكبرى ، دون الوقوف عند خصائص كل عصر بالتفصيل ، تبين لنا انها تطورت تطوراً تاريخياً ضرورياً ، واتبعت، منذ عهد الفلسفة اليونانية القديمة ، طريقاً لم يكن من الممكن ، بوجه عام ، ان تتبع غيره ، حتى أصبحت كما نجدها اليوم وهي ، بعد ، في سيرها الابدي الذي لا ينتهي ، الى امام .

لقد توصلت الفلسفة اليونانية القديمة ، الى فهم صحيح موضوعي للعالم ، وان كان ساذجاً ابتدائياً . فقد رأت ان العالم بمجموعه

يؤلف لوحة لا يبقى فيهـــا شيء كما كان ، فكل شيء يتحرك ويتغير ويتحول ويذهب . وكان « هيراكليت » أول من عبر عن هـــذه الحقيقة الديالكتيكية حـين قال : « كل شيء موجود ، ولكنه في الوقت نفسه غير موجود ، لان كل شيء يجري ، وكل شيء في تغير مستمر في صيرورة وانتهاء دائمين ، وكان معظم الفلاسفة الاغريق » منذ نشأتهم ، ديالكتيكيين وقد درس اعظمهم ، ارسطو ، الاشـكال الرئيسيـة الاولى للفــكر الديالكتيكي .

ولكن اذا كان الفكر اليوناني القديم توصل الى إدراك الحركة الكلية العـامة للكون ، فهو لم يكن ليستطيع تكوين فكرة تامـــة كاملة عن هذه الحركة ، اذ كانت تعوزه دراسة التفاصيل، أي دراسة كل حادث من حوادث الطبيعة على

انفراد لمعرفة منشئه وتطوره ونهايته ، ومن ثم تعيين مكانه في الحركة الكلية العامة . وعلوم الطبيعة هي التي تقوم عادة بدراسة هذه التفاصيل ، وهو ما لم يتيسر لليونان القدماء ، فان دراسة حوادث الطبيعة لم تبدأ بصورة جدية الا عند اليونان المعاصرين للاسكندر ، ثم تابعها العرب بعدهم في القرون الوسطى . فان الفلسفة العربية التي حفظت ـ عدا ما أبدعته وكشفته بذاتها ـ التراث الفلسفي اليوناني القديم ونقدته بعمق وعبقرية ودقة علمية لا جدال فيها ، قامت ايضاً بعمل كبير في ترقية العلوم الطبيعية المختلفة التي تقدمت فيما بعد في اوروبا ، ابتداء من القرن الخامس عشر ، بسرعة كبرى .

ولكن الانصراف الى دراسة حوادث الطبيعة كل بمفرده . طبع ايضاً بطابعه الفلسفة الحديثة في القرون الاخيرة ، فقد غابت منها الطريقة الديالكتيكية التي تميزت بها الفلسفة اليونانية القديمة فاذا استثنينا « ديكارت » و « سبينوزا » اللذين تمثل فيهما التفكير الديالكتيكي بشكل رائع ، رأينا ان الفلسفه بوجه عام « طغت عليها الطريقة « الميتافيزيكية » ، أي الطريقة التي تنظر الى الحوادث والمواضيع والافكار باعتبارها ثابتة وجامدة ومستقلاً بعضها عن بعض .

ثم جاء « كانت » فبدأ حياته الفلسفية بان وجه ضربة قاضية ألى نظرية « نيوتن » عن النظام الشمسي الثابت . فقد بيّن « كانت » ان النظام الشمسي هو نتيجة حركة تطور

تاريخية نشأت عن دوران كتلة سديمية .
وهكذا عادت النظرة الديالكتيكية التاريخية تشق طريقها من جديد في عالم الفلسفة ، تبعاً لتقدم التطور الاجتماعي العام ورقي العلوم الطبيعية .

وفي فجر القرن التاسع عشر استخلص « هيغل » من جموع العلوم والتاريخ ، أعم قوانين الطبيعة والفكر ، فاعتبر ـ لاول مرة في التاريخ ـ ان الكون بأسره ، أي الطبيعة والتاريخ والفكر ، هو نتاج تطور لا ينتهي وانه في حركة دائمة ، وفي تغير وتحول ابديين ، فكان واضع طريقة الفلسفة الديالكتيكية .

ولكن « هيغل » كان مثالياً ، فلم يعتبر الفكر نتاجاً للمادة وانعكاساً لحركتها في دماغ الانسان ، بل أعتبر الفكرة المطلقة صانعة المادة وخالقتها .

غير ان التطور الاجتماعي والعلمي كان يبين يوماً بعد يوم عجز المثالية عن تفسير حوادث الطبيعة والمجتمع . ويعود الفضل الكبير في انزال المثالية في الفلسفة عن عرشها ، الى « فورباخ » الذي قال بجرأة : « أن الفكر يخرج من الكائن ، لا الكائن من الفكر » . وكانت مادية فورباخ حلقة الانتقال من فلسفة هيغل الى فلسفة ماركس .

ان ماركس وانجلس حولا ديالكتيك هيغل بصورة أساسية ، وجعلا منه أداة للبحث العلمي وللعمل . فإنهما أزالا عنه القشور المثالية ووضعاه على أساس مادي صحيح ، وحولا ما كان عند هيغل مجرد تصور أو تفسير للعالم وللعقل ، الى قواعد للعمل . وفي ذلك يقول ماركس : « ان الفلاسفة لم يقوموا حتى الآن إلا

بتفسير العالم ، أما الآن فالمهم تغييره.» كما انهما اكتشفا القوانين العلمية لتطور المجتمع البشري . وعلى أساس هذة الفكرة الاساسية : «ان تاريخ الطبيعة والحضارات والفكر ، انما يؤلف تاريخاً واحداً تخضع مظاهره كلها لنفس قوانين التطور » .

وقد أعطى لينين هذه الفلسفة العلمية اسمها النهائي وهو : « المادية الدياليكتيكية » واستعرض أحدث الاكتشافات العلمية في عصره ، خصوصاً في ميدان الفيزياء والكيمياء،وحللها ودرسها جميعها ، وعلى أساس هذا الدرس وسع المادية الدياليكتيكية وسار بها الى الامام ، منفذاً بذلك رغبة انجلس الذي كان يقول : «أن كل اكتشاف علمي خطير (يتناول مجموع العلوم) سيجعل الماركسية تحقق رقياً جديداً » .

وكانت كل هـــذه الدراسات والابحاث مبعثرة في مؤلفات مختلفة . وفي عام ١٩٣٨ ، شرحها ستالين بمجموعها ، لاول مرة ، هذا الشرح الرائع الذي نضعه اليوم بين أيدي قراء العربية .

هكذا نشأت ، بعـــد قرن ونصف قرن من الدراسات والابحاث العلميـة والفنية والتاريخيه ، طريقة جديدة حلت محل ما كان الاولون يسمونه « المنطق » ، وهذه الطريقة هي الديالكتيك ، او علم التغيرات في الفـكر والطبيعة والتاريخ ، هـذه التغيرات الخاضعـة لقوانين التناقض . والفعـل المتبادل ، والرقي بقفزات . وتتمثل في هـذه الطريقة خلاصة ما حققه الفكر البشري حتى الآن خلال تطوره الطويل من عهود فلاسفة اليونان القدماء ، الى عهود الفلاسفـة العرب ، الى مفكري اوروبا الحديثة وعلمائها ..

وبتطبيق هذه الطريقة على الحياة الاجتماعية ، أصبحت السياسة علماً . وماذا كان من نتائجها ؟ لقد كانت روسيا حتى عام ١٩١٧ ، اكثر اقطار اوروبا تأخراً في جميع الميادين ، فاستعمل البلاشفة المادية الديالكتيكية كأداة للبحث والعمل ، فجعلوا من وطنهم خلال ربع قرن،اكثر بلاد العالم قوة وازدهاراً ورقياً وحضارة .

وكما ان الفكر العربي القديم ، الذي استمد من الفلسفة اليونانية خصباً فوق خصبه ، وقوة فوق قوته ، استطاع ان يكون أساس ذلك الجهد المبدع الذي خلق حضارة سيبقى ذكرها طويلاً في التاريخ ، فان الفكر العربي الحديث ، باستنارته بهذه الطريقة العلمية في البحث والتحليل ، التي يستنير بها ملايين

الناس من مختلف الاقطـار والاجناس والاديان ، يستطيـع ان يساعد عمل الجماهير الشعبية العربية في سبيل حرية أوطانها ورقيها وسعادتها .

خالد بكداش



المادية الديالكتيكية
والمادية التاريخية

المادية الديالكتيكية هي النظرية العامة للحزب الماركسي اللينيني. وقد سميت بالمادية الديالكتيكية لان اسلوبها في النظر الى حوادث الطبيعة ، أو طريقتها في البحث والمعرفة هي ديالكتيكية (١)، ولان تعليلها حوادث الطبيعة وتصورها لهـــذه الحوادث ، أي نظريتها ، هي مادية .

---

(١) سياتي تحديد معنى كلمة « ديالكتيك » بعد قليل في سياق البحث. ويترجمها بعضهم بكلمة « جدلية » الا ان كلمة « جدلية » لا تؤدي المعنى المقصود اداءاً تاما .

(هيئة التعريب)

أما المادية التاريخية فتوسع نطاق مبادى، المادية الديالكتيكية حتى تشمل دراسة الحياة الاجتماعية ، وتطبق هذه المبادىء على حوادث الحياة الاجتماعية ، أي على درس المجتمع ، وعلى درس تاريخ المجتمع .

وعندمـــا يعرف ماركس وانجلس طريقتهما الديالكتيكية ، يرجعان عادة الى هيغل(١) ، باعتباره الفيلسوف الذي أبان الخطوط الاساسية للديالكتيك . غير ان ذلك لا يعني ان ديالكتيك ماركس وانجلس

---

(1) Hegel « ١٧٧٠ - ١٨٣٠ » اشهر واعظم الفلاسفة المثاليين الالمان . وعنوان عظمته الطريقة الديالكتيكية التي تصورها بشكل مثالي ، ولكنها كانت صحيحة من حيث الاساس ، وهو يذهب الى ان الفكرة المطلقة هي المبدأ الاول والواقع الوحيد ، وهي تتخذ شكلا خارجيا في الطبيعة ، ثم تعود الى نفسها بشكل العقـــل . والفكرة بذاتها هي خالق الطبيعة والتاريخ وصانعهما . وقد قلب ماركس ديالكتيك هيغل ووضعه على قدميه بعد ان بينت له وحدة الـذات والموضوع في الطبيعة وفي المجتمع البشري .

(هيئة التعريب)

هو عين ديالكتيك هيغل ، لان ماركس وانجلس لم يقتبسا من ديالكتيك هيغل سوى « نواته العقلية » وطرحا قشرته المثالية ، ثم وسعاه وانمياه ، واعطياه طابعاً علمياً حديثاً .

يقول ماركس :

«ان طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيغلية من حيث الاساس فحسب ، بل هي ضدها تماماً ،فحركة الفكر ،هذا الفكر الذي يشخصه هيغل ويطلق عليه اسم « الفكرة (١) هي في نظره ، خالق الواقع وصانعه ، فما الواقع الا الشكل الحادثي للفكرة .اما في نظري ، فعلى العكس ، ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية ، منقولة الى دماغ الانسان ومستقرة فيه » (كارل ماركس

(1) Idée

رأس المال ـ المجلد الاول ـ ص ٢٩ ـ الطبعة الفرنسية ـ مكتب المطبوعات ـ باريس ١٩٣٨) .

وعندما يعرف ماركس وانجلس ماديتهما يرجعان عادة الى فورباخ (١) باعتباره الفيلسوف الذى أعاد الى المادية حقوقها . غير ان ذلك لا يعني ان مادية ماركس وانجلس هي عين مادية فورباخ . فان ماركس وانجلس لم يقتبسا من مادية فورباخ سوى نواتها المركزية ، ثم وسعاها وجعلا منها نظرية فلسفية علمية للمادية ، وطرحا عنها ما تراكم عليها

---

(١) لودفيغ فورباخ « ١٨٠٤ ـ ١٨٧٢ » فيلسوف الماني مادي احيا وجدد مادية القرن الثامن عشر بكل صفاتها ونقائصها : بحقدها الثوري على الجمود الغيبي وبميلها الواضح الى المثالية عندما تحاول تفسير الحوادث والاعمال الاجتماعية . وكان فورباخ يقول « ان الفكرة خرجت من الكائن ، لا الكائن من الفكرة » وان الانسان هو نتاج الطبيعة . وتشكل فلسفة فورباخ حلقة الانتقال من فلسفة هيغل الى فلسفة ماركس .

(هيئة التعريب)

من قشور مثالية واخلاقية ودينية . ومن المعلوم ان فورباخ ، رغم كونه مادياً من حيث الأساس ، احتج على نعته بالمادية ، حتى لقد قال انجلس مرارا ان فورباخ « رغم اساسه » (المادي) « ظل سجين القيود المثالية التقليدية » و « ان مثالية فورباخ الحقيقية » تظهر (حال وصولنا الى فلسفته في الدين والى فلسفته في الاخلاق) (فريدريك انجلس ـ لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية (١) الالمانية ـ

---

(١) كلاسيكية Classique : الكلاسيكي نعت جامع لامور متفرقة . فاذا اضيف الى اللغات مثلا ، اريد به اليونانية القديمة واللاتينية اللتين اورثتا العالم الغربي « والشرقي في حد ما » نماذجه الفكرية والادبية المثلى . واذا اضيف الى الادب خاصة اريد به ادب اليونان والرومان القدماء او ما ضرب على غراره من اداب الامم الغربية ، وذلك معارضة للادب الجديد حينا ، والرومانطيقي حينا اخر ، ويراد به هنا المذاهب الفلسفية التي كانت لها الغلبة او السيادة على الاوساط الجامعية والرسمية بالمانيا ، ودلالته العامة هي القدمية والاصالة واتباع السنن المقررة .

(هيئة التعريب)

طبع موسكو ١٩٤٦ ص ٣٠ ـ ٣٤) .

أخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية (دياليغو) ومعناها المحادثة والمجادلة . وكان الديالكتيك يعني ، في عهد الاولين ، فن الوصول الى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها استدلال الخصم ، وبالتغلب عليها .

وكان بعض الفلاسفة الاولين يعتبرون ان اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الآراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة . فهذا الاسلوب الديالكتيكي في التفكير ، الذي طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة ، أصبح الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة . ان حوادث الطبيعة ، بموجب هذه الطريقة ، هي متحركة متغيرة دائماً وابداً ، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة ، نتيجة الفعل المتبادل بين القوى المتضادة في الطبيعة .

ان الديالكتيك هو ، من حيث جوهره ، ضد الميتافيزية (١) تماماً .

١ ـ تتميز الطريقة الديالكتيكية الماركسية بالخطوط الأساسية التالية :

أ) ـ ان الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزية ، لا يعتبر الطبيعة تراكماً عرضياً للاشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض ، أو أحدها منعزل مستقل عن الآخر ، بل يعتبر الطبيعة كلاً واحداً ، وتماسكا ، ترتبط فيه الاشياء والحوادث فيما بينهـــا ارتباطاً

---

(١) الميتافيزية : وتعني حرفيا « ما وراء الطبيعة » او « مـــا وراء الموجود الفيزيائي » • وقد رأينا الاحتفاظ بلفظها الاصلـــي لان ترجمتها لا تؤدي معناها اداء تاما • ويأتي شرحها في سيـــاق البحث • وهي ، بايجاز ، تعني طريقة في التفكير الفلسفـــي تنكر الروابط بين الاشياء والحوادث ، وتنظر اليها منفصلا بعضها عـــن بعض ، وتعتبر الطبيعة والمجتمع في حالة جمود واستقرار ، فحركة التطور في نظرها حركة نمو بسيط او تكرار وتراكم للحوادث نفسها • (هيئة التعريب)

عضوياً ، ويتعلق أحدها بالآخر ، ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة .

لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ان أي حادث من حوادث الطبيعة ، لا يمكن فهمه اذا نظر اليه منفرداً ، بمعزل عن الحوادث المحيطة به ، إذ أن أي حادث في أي ميدان من ميادين الطبيعة ، يمكن أن ينقلب إلى عبث فارغ لا معنى له، اذا نظر اليه بمعزل عن الشروط التي تكتنفه ، واذا فكر عن هذه الشروط . وعلى العكس ، يمكن فهم أي حادث من الحوادث وتبريره اذا نظر اليه من حيث ارتباطه ارتباطاً لا ينفصم بالحوادث المحيطة به ، أي اذا نظر اليه كما تحدده وتكيفه الحوادث التي تحيط به .

ب) ــ ان الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزية ، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود، حالة ركود واستقرار، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين ، حالة تجدد

وتطور لا ينقطعان، ففيها دائماً شيء يولد ويتطور، وشيء ينحل ويضمحل .

ولهذا تريد الطريقة الديالكتيكية أن لا يكتفي بالنظر الى الحوادث من حيث علاقات بعضها ببعض، ومن حيث تكييف بعضها لبعض بصورة متقابلة، بل ان ينظر اليها ايضاً من حيث حركتها ، من حيث تغيرها وتطورها ، من حيث ظهورها واختفائها .

وان المهم الجدير بالاعتبار قبل غيره في نظر الطريقة الديالكتيكية ، ليس الشيء الذي يبدو ، في لحظة معينة ، ثابتاً مستقراً وهو في الواقع آخذ في الفناء ، بل المهم الجدير بالاعتبار قبل غيره في نظرها، هو الشيء الذي يولد ويتطور ، ولو كان هذا الشيء يبدو في لحظة معينة غير ثابت وغير مستقر ، اذ انه ليس في نظر الطريقة الديالكتيكية من شيء لا يقهر ولا يغلب سوى الشيء الذي يولد ويتطور .

يقول انجلس :

« ان الطبيعة بأجمعها ، من أضال الاجزاء الى أكبر الاجسام ، من حبة الرمل الى الشمس ، من البروتيست (وهي الخلية الحية الابتدائية ـ ملاحظة من يوسف ستالين) الى الانسان ، هي في حركة دائمة من النشوء والاضمحلال ، هي في مد لا ينقطع ، في حركة وتغير مستمرين ابديين » (كارل ماركس وفريدريك انجلس : المؤلفات الكاملة ـ ضد دوهرينغ (١) ـ ديالكتيك الطبيعة ـ ص ٤٩١ ـ موسكو ـ الطبعة الالمانية ١٩٣٥) .

ولذا فالديالكتيك ، كما يقول انجلس :

---

(١) ضد دوهرينغ : مؤلف شهير وضعه فريدريك انجلس ردا على عالم الماني اسمه دوهرينغ احدث في وقته ضجة كبرى في المانيا . وقد شرح انجلس خلال الرد عليه النظريات الماركسية الرئيسية في الفلسفة والاشتراكية والاقتصاد السياسي .

(هيئة التعريب)

« ... ينظر بالدرجة الاولى ، الى الاشيــاء والى انعكاسها العقلي ، من حيث تسلسلهــــا ، من حيث حركتها ، من حيث نشوئها واضمحلالهـا » (المرجع ذاته ـ ص ٢٥) .

ج) ـ ان الديالكتيك ، خـلافاً للميتافيزية ، لا يعتبر حركة التطور حركة نمـــو بسيطة ، لا تؤدي التغييرات الكمية فيها الى تغييرات كيفية،بل يعتبرها تطوراً ينتقل من تغييرات كمية ضئيلة وخفية الى تغييرات ظاهرة وأساسية، أي الى تغييرات كيفية. وهـــذه التغييرات الكيفية ليست تدريجية ، بل هي سريعة،فجائية، وتحدث بقفزات من حالة الى أخرى. وليست هذه التغييرات جائزة الوقوع، بل هي ضرورية، وهي نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية.

ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية إن من الواجب فهم حركة التطور لا من حيث هي حركة

دائرية، أو تكرار بسيط للطريق نفسه، بل من حيث هي حركة تقدمية صاعدة ، وانتقـــال من الحالة الكيفية القديمة الى حالة كيفية جديـــدة ، وتطور ينتقل مـــن البسيط الى المركب ، من الادنى الى الاعلى .

يقول انجلس :

« ان الطبيعة هي محك الاختبـار للديالكتيك ، ولا بد من القول ان علوم الطبيعة الحديثة قـــد وفرت لهذا الاختبار مواد غنية الى اقصى حد. وهذه المواد تزداد كل يوم . وهكذا برهنت هذه العلوم ان الطبيعة تعمل ، في النتيجه ، بصورة ديالكتيكيه لا بصورة ميتافيزية ، وانها لا تتحرك في دائرة تبقى هي ذاتها دائماً وتتكرر الى الابد ، بل ان لها تاريخاً واقعياً. وبهذه المناسبة ينبغي ان نذكر بالدرجـــة الاولى ،

داروين (١) الذي وجه ضربة قاسية الى الفهم الميتافيزي للطبيعة ، باثباته ان العالم العضوي باسره ، كما هو موجود اليوم ، أي النباتات والحيوانات ، وبالتالي الانسان ايضاً ، هو كله نتاج تطور يجري منذ ملايين السنين » (المرجع ذاته ـ ص ٢٥) .

ويبين انجلس ان التغيرات الكمية تنقلب الى تغيرات كيفية في التطور الديالكتيكي .

« في الفيزياء ... كل تغير هو انتقال من الكمية الى الكيفية ، هو نتيجة التغير الكمي لكمية الحركة ـ كيفما كان شكلها ـ سواء كانت ملازمة للجسم من

---

(١) شارل داروين « ١٨٠٩ ـ ١٨٨٢ » عالم طبيعي انكليزي ومن ابرز علماء نظرية التطور في علوم الطبيعة في القرن الماضي . اعطى نظرية التحول قوة الاقناع بفرضيته المعروفة عن « الاصطفاء الطبيعي » اي الاصطفاء في النضال لاجل الحياة ، هذا النضال الذي يبقي على الاقوى والاكفا .

(هيئة التعريب)

داخله أم مضافة اليه من خارج. فان حرارة الماء مثلا، ليس لهـا ، في بادىء الامر ، تاثير في حالته من حيث هو سائل ، ولكن اذا زيدت أو أنقصت حرارة الماء ، جاءت لحظة تعدلت فيها حالة التماسك التي هو فيها ، وتحول الماء الى بخار في إحدى الحالات ، والى جليد في الحالة الأخرى...وكذلك نرى ان شريطاً من البلاتين يحتاج الى تيار ذي قوة معينة لـكي يصبـح مضيئاً ، ونرى ايضاً ان لكل معدن حرارة ذوبان ، وان لكل سائل ، موضوع تحت ضغط معين ، حـــداً معيناً للتجمد وللغليان ، وذلك بمقدار ما تسمح لنا وسائلنا بالحصول على درجات الحرارة اللازمة . ونرى أخيراً ان لكل غاز حرارة معينة يمكن فيها تحويله الى سائل ضمن شروط معينة من الضغط والتبريد ... فالنقاط الثابتة، كما يقال في الفيزياء(هي نقاط الانتقال من حالة الى أخرى ـ ملاحظـة من يوسف ستالين) ليست ،

على الغالب سوى النقاط العقدية التي تؤدي فيها زيادة الحركة أو انقاصها (وهو تغير كمي) الى حدوث تغير كيفي في جسم ما ، أي انها النقاط التي تتحول فيها الكمية الى كيفية » (المرجع ذاته : ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣) .

ويقول في الكلام عن الكيمياء :

« لا يمكن القول ان الكيمياء هي علم التغيرات الكيفية الناشئة في الاجسام عن تغيرات كمية . وكان هيغل نفسه يعرف ذلك في عهده. لنأخذ الاوكسجين: فاذا جمعنا في جزئية (١) ثلاث ذرات (٢) عوضاً عن اثنتين كالعادة ، حصلنا على جسم جديد هو « الاوزون » الذي يختلف اختلافاً بيناً ، برائحته وبتأثيراته ، عن الاوكسيجين العادي . وماذا تقول

---

(1) Moicenic

(2) Atome

عن مختلف تراكيب الاوكسيجين مع الأزوت أو مع الكبريت ؟ ان كل تركيب منها يعطي جسماً مختلفاً من حيث الكيفية عن جميع الأجسام التي تعطيها التراكيب الأخرى . » (المرجع ذاته ـ ص ٥٠٣) .

وأخيراً ينتقد انجلس دوهرينغ الذي يشتم هيغل، ويختلس منه في الوقت نفسه نظريته المشهورة القائلة بأن الانتقال من عهد العالم الفاقد الحس الى عهد الاحساس ، من عهد العالم غير العضوي الى الحياة العضوية ، هو قفزة الى حالة جديدة :

« هذا هو تماماً الخط العقدي الهيغلي لعلاقات القياس ، حيث تنتج في بعض النقاط العقدية ، من اضافة كمية محضة ، أو من حذف كمي محض ، قفزة كيفية ، كما هي الحال مثلاً في الماء المسخن أو المبرد . فان نقطة الغليان ونقطة التجمد فيه هما العقدتان اللتان تتم فيهما ، تحت الضغط العادي » القفزة الى

حالة جديدة من التجانس أي تتحول فيهما الكمية الى كيفية » (المرجع ذاته ، ص ٤٩ ـ ٥٠) .

د) ـ ان نقطة الابتداء في الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزية ، هي وجهة النظر القائمة على ان كل اشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية ، لان لها جميعها جانباً سلبياً وجانباً ايجابياً، ماضياً وحاضراً ، وفيها جميعها عناصر تضمحل أو تتطور. فنضال هذه المتضادات ، أي النضال بين القديم والجديد ، بين ما يموت وما يولد ، بين ما يفنى وما يتطور، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور ، هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ، ان حركة التطور من الأدنى الى الأعلى ، لا تجري بتطور الحوادث تطوراً تدريجياً متناسقـــاً ، بل بظهور التناقضات الملازمة للاشياء والحوادث بـ « نضال »

الاتجاهات المتضادة، التي تعمل على أساس هـــذه التناقضات .

يقول لينين :

« ان الديالكتيك ، بالمعنى الخاص للكلمة ، هو درس التناقضات في ماهية الاشياء نفسها » (لينين ـ الدفاتر الفلسفية ـ ص ٢٦٣ ، الطبعة الروسية) .

ويقول في مكان آخر :

« التطور هو « صراع » المتضـــادات » (لينين ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ١٣ ـ ص ٣٠١ ـ الطبعة الروسية) .

تلك هي بايجاز ، الخطوط الاساسية للطريقة الديالكتيكية الماركسية .

وليس من الصعب ان ندرك ما هنالك من أهمية عظمى في اخضاع دراسة الحيـــاة الأجتماعية ودرس تاريخ المجتمع لمبادىء الطريقة الديالكتيكية ، ومـــا

هنالك من أهمية عظمى في تطبيق هذه المبادىء على تاريخ المجتمع وعلى النشاط العملي لحزب البروليتاريا.

فاذا صح ان ليس في العالم حوادث منعزلة اذا صح أن كل الحوادث مرتبطة فيما بينها ويكيف بعضها البعض الآخر بصورة متبادلة ، فمن الواضح ان كل نظام اجتماعي،وكل حركة اجتماعية في التاريخ ، لا ينبغي الحكم عليهما من ناحية « العدالة الابدية » ، أو من ناحية أية فكرة أخرى مقررة سلفاً ، كما يفعل المؤرخون على الغالب ، بل ينبغي لنا ان نبني حكمنا على أساس الظروف التي ولدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطين بها .

ان نظام الرق (١) يكون في الظروف الحاضرة

---

(١) الرق: هو النظام الاجتماعي الذي كان سائداً قديما في اليونان وروما وغيرهما من اقطار الدنيا ، وكان قائما على استملاك السيد « صاحب الارض او الملاك الخ » لعدد من الرقيق « العبيد »

خرقاً وبدعة مضادة للطبيعة ولكن نظام الرق في ظروف المشاعية البدائية (١) ، الآخذة بالانحلال ، هو حادث مفهوم تماماً ومنطقي ، لأنه يعني خطوة إلى الأمام بالنسبة لنظام المشاعية البدائية .

ان المطالبة باقامة الجمهورية الديموقراطية البورجوازية في ظروف القيصرية ، والمجتمع البورجوازي ، مثلاً في روسيا عام ١٩٠٥ ، كانت

يشتريهم ليعملوا في ارضه او مشاريعه مقابل طعامهم فقط ، وكان له عليهم حق الملكية والتصرف ككل شيء اخر يملكه ، فيستطيع بيعهم او ضربهم وتجويعهم او قتلهم .

(هيئة التعريب)

(١) المشاعية البدائية : هي النظام الاجتماعي الذي كان موجودا في اوائل عهود البشرية « عهود ما قبل التاريخ » وكان قائما على المشاع في الارض وفي ادوات الانتاج البسيطة البدائية التي كان الانسان يستعملها في الصيد أو غيره وقد انحل هذا النظام مع تطور ادوات الانتاج ، وخلفه الرق .

(هيئة التعريب)

شيئاً مفهوماً وصحيحاً وثورياً تماماً ، لان الجمهورية البورجوازية كانت تعني إذ ذاك خطوة إلى الأمـام . ولكن المطالبة باقامـــة الجمهورية الديموقراطية البورجوازية في ظروف الاتحاد السوفياتي الحاضرة ، تكون خرقاً ، وشيئاً رجعياً مضـــاداً للثورة ، لأن الجمهورية البورجوازية هي خطوة الى الوراء بالنسبة الى الجمهورية السوفياتية »

كل شيء يتعلق بالظروف ، بالمكان والزمان .

ومن الواضح ان وجود علم تاريخي ، وتطور هذا العلم ، شيئان مستحيلان بدون هذا الفهم التاريخي للحوادث ألاجتماعية ، فمثل هذا الفهم فقط يمنع علم التاريخ من ان يصبح فوضى احتمالات وكوم اخطاء سخيفة .

وبعد ، إذا صح ان العالم يتحرك ويتطور دائماً وأبداً ، إذا صح ان اختفاء القديم ونشوء الجديد هما

قانون للتطور ، أصبح من الواضح ان ليست هناك أنظمة اجتماعية ثابتة« غير قابلة للتغيير» ولا « مبادىء أبدية » للملكية الخاصة والاستثمار ، وليست هناك « افكار أبدية » عن خضوع الفلاحين لكبار ملاكي الارض ، والعمال للرأسماليين .

وبالتالي ، يمكن ان يحل النظام الاشتراكي محل النظام الرأسمالي كما حل النظام الرأسمالي في حينه محل النظام الاقطاعي .

وبالتالي ، ينبغي أن نؤسس عملنا لا على الفئات الاجتماعية التي توقفت عن التطور ، وان كانت لا تزال الآن تمثل القوة السائدة، بل على الفئات الاجتماعية التي تتطور والتي لها مستقبل وان كانت بعد ، لا تمثل القوة السائدة .

في أعوام ۱۸۸۰ ـ ۱۸۹۰ ، عهد نضال الماركسيين ضد الشعبيين ، كانت البروليتاريا في روسيا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى جماهير الفلاحين الفرديين الذين كانوا

يؤلفون أكثرية السكان الكبرى . ولكن البروليتاريا كانت تتطور من حيث هي طبقة ، بينما كانت جماهير الفلاحين ، من حيث هي طبقة ، في انحلال . ونظراً لأن البروليتاريا كانت تتطور من حيث هي طبقة ، أسس الماركسيون عملهم عليها . وهم لم يخطئوا في ذلك . لأنه من المعلوم ان البروليتاريا التي لم تكن سوى قوة قليلة الاهمية ، أصبحت فيما بعد ، قوة تاريخية وسياسية من الدرجة الاولى .

فاذن : لأجل اجتناب الخطأ في السياسة يجب النظر الى الأمام لا الى الوراء .

وبعد ، اذا صح ان الانتقال من التغيرات الكمية البطيئة الى تغيرات كيفية فجائية وسريعة ، هو قانون للتطور ، فمن الواضح ان الثورات التي تقوم بها الطبقات المضطهدة هي حادث طبيعي تماماً ، ولا مناص منه .

وبالتالي ، فالانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وتحرر الطبقة العاملة من النـــير الرأسمالي ، يمكن تحقيقهما، لا بتغييرات بسيطة بطيئة ولا باصلاحات، بل فقط بتغيير كيفي للنظام الرأسمـــالي فقط ، أي بالثـــورة .

واذن لأجل اجتناب الخطأ في السياسة يجب ان يكون الانسان ثورياً ، لا اصلاحياً .

وبعد ، اذا صح ان التطور يجري بانبثـــاق التناقضات الداخلية ، وبالنزاع بين القوى المتضـادة على أساس هذه التناقضات ، وان غاية هذا النزاع هي قهر هذه التناقضات والتغلب عليها ، فمن الواضح ان نضال البروليتاريا الطبقي هو حادث طبيعي تماماً ، ولا مناص منه .

وبالتالي ، لا ينبغي اخفاء تناقضـات النظام الرأسمالي ، بل ينبغي ابرازها وعرضها ، ولا ينبغي

خنق النضال الطبقي ، بل ينبغي القيام به الى النهاية .

واذن ، لأجل اجتناب الخطأ في السياسة ينبغي اتباع سياسة بروليتارية طبقية حازمة ، لا سياسة اصلاحية تقول بالتناسق بين مصالح البروليتاريا ومصالح البورجوازية « ولا سياسة تفاهمية تقول بـ « ادماج » الرأسمالية في الاشتراكية .

هذا ما تقول به الطريقة الديالكتيكية الماركسية لدى تطبيقها على الحياة الاجتماعية ، على تاريخ المجتمع .

أما المادية الفلسفية الماركسية فهي بدورها ، تعارض المثالية الفلسفية من حيث الأساس وعلى خط مستقيم .

٢ ـ تتميز المادية الفلسفية الماركسية بالخطوط الاساسية التالية :

أ ـ خلافاً للمثالية التي تعتبر العالم تجسداً لـ « الفكرة المطلقة » أو لـ « العقل الكلي » او لـ

« الوعي » ، تسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل ان العالم بطبيعته مادي ، وان حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة ، وان العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية ، هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وان العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة ، وهو ليس بحاجة لأي « عقل كلي »

يقول انجلس :

« ان الفهم المادي للعالم يعني ، بكل بساطة، فهم الطبيعة كما هي دون أية اضافة غريبة » (فردريك انجلس : لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ـ الطبعة الالمانية ـ موسكو ـ ص ٦٠) .

ولقد كتب لينين بصدد المفهوم المادي عند فيلسوف العهد القديم هيراقليط ، الذي جاء فيه أن

«... العالم هو واحد ، لم يخلقه أي اله أو أي انسان ، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الابد ، تشتعل وتنطفىء تبعاً لقوانين معينة... » فقال :

« يا له من شرح رائع لمبادىء المادية الديالكتيكية» (لينين: الدفاتر الفلسفية ـ ص ٣١٨ ـ الطبعة الروسية).

ب) خلافاً للمثالية التي تؤكد ان شعورنا وحده هو الموجود واقعياً ، وان العالم المادي ، والكائن ، والطبيعة ، لا توجــــد الا في ادراكنا واحساساتنا ، وتخيلاتنا، وتصوراتنا، تقوم المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ آخر وهو ان المادة، والطبيعة ، والكائن ، هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الادراك أو الشعور وبصورة مستقلة عنه ، وان المادة هي عنصر أول لانها منبع الاحساسات، والتصورات والادراك ، بينما الادراك هو عنصر ثان ، مشتق ، لانـه انعكاس المادة ، انعكاس الكائن ، وان الفكر هو نتاج المادة

لما بلغت في تطورها درجـــة عالية من الكمال ، أو بتعبير أدق ، ان الفكر هو نتاج الدماغ ، والدماغ هو عضو التفكير ، فلا يمكن ، بالتالي ، فصل الفكر عن المادة دون الوقوع في خطأ كبير .

يقول انجلس :

« ان مسألة علاقة الفكر بالكائن أو علاقة العقل بالطبيعة ، هي المسألة العليا في كل فلسفة. وكان الفلاسفة تبعاً لاجابتهم على هذه المسألة ، ينقسمون الى معسكرين كبيرين : فاولئك الذين كانوا يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ، يؤلفون معسكر المثالية والآخرون الذين كانوا يقرون تقدم الطبيعة ، ينتمون الى مختلف مدارس المادية » (فريدريك انجلس : لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٢٢ ـ ٢٣) .

ويقول فيما بعد :

ان العالم المادي ، الذي تدركه حواسنا والذي ننتمي اليه نحن أنفسنا، هو الواقع الوحيد. اما أدراكنا وفكرنا فهما ، مهما ظهرا رفيعين ساميين ، ليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي ، هو الدماغ ... ان المادة ليست من نتاج العقل ، بل ان العقل نفسه ليس سوى نتاج المادة الاعلى » (المرجع ذاته ص ـ ٢٦) .

ولقد قال ماركس بصدد قضيه المادة والفكر :

لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة. فان هذه المادة هي جوهر كل التغيرات التي تحدث » (فريدريك انجلس: الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ـ المقدمة) .

ولما عرف لينين المادية الفلسفية الماركسية أفصح عن رأيه بالعبارات التالية :

« تقبل المادية بصورة عامة ان الكائن الواقعي الموضوعي (المادة) هو مستقل عن الادراك ، عن

الاحساسات ' عن التجربة ... فالادراك . ليس الا انعكاس الكائن ' وهو في احسن الحالات' انعكاس صحيح تقريباً (أي انعكاس تام ، بالغ اعلى دراجات الدقة) . » (لينين : المؤلفات الكاملة ـ المجلد ١٣ ـ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ الطبعة الروسية) .

وقال فيما بعد :

« المادة هي ما ينتج الاحساسات بالتأثير في أعضاء حواسنا ، المادة هي واقع موضوعي تعطينا اياه الاحساسات . المادة ، والطبيعة ، والكائن ، والموجود الفيزيائي هي العنصر الاول » بينما العقل ، والادراك والاحساسات،والموجود النفسي ، هي العنصر الثاني» (المرجع ذاته : ص ١١٩ ـ ١٢٠) .

« ان لوحة العالم هي لوحة تبين كيف تتحرك المادة وكيف « تفكر المادة » (المرجع ذاته:ص٢٨٨) .

«الدماغهوعضو التفكير» (المرجع ذاتهص١٢٥) .

ج) خلافاً للمثالية التي تنكر امكان معرفة العالم وقوانينه ، ولا تؤمن بقيمة معارفنا ولا تعـــترف بالحقيقة الموضوعية وتعتبر ان العالم مملوء بـ « اشياء قائمة بذاتها » ولن يتوصل العلم ابـداً الى معرفتهـا تقوم المادية الفلسفية الماركسية على المبدأ القائل انه من الممكن تماماً معرفة العالم وقوانينه ، وان معرفتنا لقوانين الطبيعة ، تلك المعرفة التي يجري تحقيقهـــا بالعمل والتجربة ، هي معرفة ذات قيمة ، ولها معنى حقيقة موضوعية ، وأن ليس في العالم اشياء لا يمكن معرفتها ، وانما فيه اشياء لا تزال مجهولة بعد ، وهي ستكشف وتصبح معروفة بوسائل العلم والعمل .

وينتقد انجلس رأي « كانت » (١) والمثــالين

---

(١) عمانوئيل كانت Kant « ١٧٤٢ ـ ١٨٠٤ » فيلسوف المانـي من كبار فلاسفة العصور الحديثة واضع المذهب المسمى بـ « المثاليـة النقدية » التي فتحت الطريق لتطور المثالية الديالكتيكية المطلقة التي وضعها هيغل فيما بعد . (هيئة التعريب)

الآخرين القائل انه ليس من الممكن معرفة العـــالم و « الاشياء بذاتها » ، ويدافع عـــن الرأي المادي المعروف القائل بان معارفنا صحيحة وقد كتب انجلس في هذا الموضوع ما يلي :

« ان أعظم رد حاسم على هـذه النزعة الفلسفية وعلى كل نزعة أخرى غيرها هو العمل وعلى الأخص التجربة والصناعة . فاذا استطعنا أن نبرهن على صحة فهمنا لحادث طبيعي بخلق هـــذا الحادث بانفسنا ، وباحداثه بمساعدة شروطه ، وباستخدامه ، فوق ذلك، في سبيل اغراضنا ، ففي ذلك القضاء المبرم على (الشيء بذاته) والذي لا يمكن ادراكه ، مما يذهب اليه (كانت) فان المواد الكيماوية الناتجـــة من الاجسام النباتية والحيوانية ، ظلت (اشياء قائمة بذاتها) الى ان اخذت الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة بعد الاخرى ، وبذلك أصبح (الشيء بذاته) شيئاً كائناً من أجلنا ،

كالاليزارين، مثلاً، وهي المادة الصباغية في نبات الفوة والتي لم نعد نستخرجها من جذور الفوة المزروعة في الحقول . بل نسحبها بثمن أرخص وبصورة أبسط من قطران الفحم الحجري . وقد بقي نظام كوبرنيك (١) الشمسي خلال ثلاثمائة سنة ، فرضية يمكن المراهنة على صحتها بمئة ، أو بألف أو بعشرة آلاف ضد واحد ، الا أنها كانت ، رغم كل شيء ، فرضية . ولكن لما حسب لوفيرييه (٢) بمساعدة أرقام حصل عليها بفضل هذا النظام ، ليس فقط ضرورة

---

(١) نيقولا كوبرنيك « ١٤٦٣ ـ ١٥٤٣ » عالم فلكي بولوني برهن على حركة الكواكب السيارة ودورانها حول نفسها من جهة وحول الشمس من جهة أخرى .

(٢) لوفيرييه « ١٨١١ ـ ١٨٧٧ » عالم فلكي فرنسي قام بحسابات فلكية برهن بموجبها على ضرورة وجود كوكب سيار عين محله بالضبط . وقد اكتشف هذا الكوكب فيما بعد وسمي نبتون .
(هيئة التعريب)

وجود كوكب مجهول ، بل ايضاً المكان الذي يجب ان يكون فيه هذا الكوكب في الفضاء الكوني ولما اكتشف (غال) هذا الكوكب فعلاً فيما بعد ، حينئذ تم البرهان على صحة نظام « كوبرنيك » (فريدريك انجلس : لودفيك فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ـ ص ٢٤) .

واتهم لينين بوغدانوف وبازاروف ويوشكيفيتش وانصار (ماخ) الآخرين بـ « الايمانية » و «هي نظرية رجعية تضع الايمان فوق العلم » ، ودافع عن النظرة المادية المشهورة القائلة بان معارفنا العلمية عن قوانين الطبيعة هي صحيحة وان القوانين العلمية هي حقائق موضوعية ، وقد قال في هذا الموضوع ما يلي :

« ان « الايمانية » لا تنبذ العلم ابداً ، بل تنبذ « مزاعمه المتطرفة » ، أي زعمه الكشف عن الحقيقة الموضوعية . لانه اذا كان هناك حقيقة موضوعية

« كما يفكر الماديون » ، واذا كانت علوم الطبيعة التي تعكس العالم الخارجي في « التجربة » البشرية ، هي وحدها القادرة على اعطائنا الحقيقة الموضوعية ، أصبح من الواجب نبذ كل نظرية ايمانية على الاطلاق» « لينين: المؤلفات الكاملة: المجلد ١٣ ـ ص ١٠٢ الطبعة الروسية » .

تلك هي بايجاز الخطوط التي تميز المادية الفلسفية الماركسية .

ومن السهل ان ندرك الاهمية العظمى لتطبيق مبادىء المادية الفلسفية على درس الحياة الاجتماعية ، على درس تاريخ المجتمع ، كما انه من السهل ان ندرك الاهمية العظمى لتطبيق هـذه المبادىء على تاريخ المجتمع ، على النشاط العملي لحزب البروليتاريا .

فاذا صح ان الصلة بين حوادث الطبيعة وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة ، هما قانونان ضروريان

من قوانين تطور الطبيعة ، نتج من ذلك ان الصلة بين حوادث الحياة الاجتماعية وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة ، ليسا مجرد احتمالات ، بل هما ايضاً قانونان ضروريان من قوانين التطور الاجتماعي .

وبالتالي ، تخرج الحياة الاجتماعية ، وتاريخ المجتمع عن كونهما تكدس « احتمالات » بل يصبح تاريخ المجتمع تطوراً ضرورياً للمجتمع ، وتصبح دراسة التاريخ الاجتماعي علماً .

وعلى ذلك ، يجب ان يكون النشاط العملي لحزب البروليتاريا مؤسساً لا على الرغبات المحدودة « لنخبة من الأفراد » ولا على مقتضيات « العقل » و« الاخلاق الكلية » .. الخ .. بل على قوانين التطور الاجتماعي ، وعلى دراسة هذه القوانين .

وبعد ، اذا صح ان معرفة العالم ممكنة ، وان معرفتنا لقوانين تطور الطبيعة هي معرفة صحيحة

لها دلالة حقيقة « موضوعية » ، نتج من ذلك ان معرفة الحياة الاجتماعية ، ومعرفة التطور الاجتماعي هي ايضاً ممكنة ، وان المعلومات التي يقدمها العلم عن قوانين التطور الاجتماعي هي معلومات مقبولة ، لها دلالة حقائق موضوعية .

وبالتالي، من الممكن ان يصبح علم تاريخ المجتمع رغم تعقد حوادث الحياة الاجتماعية وتشابكها ، علماً فيه من الدقة ما في البيولوجيا (١) مثلاً وقادراً على استخدام قوانين التطور الاجتماعي في تطبيقات عملية.

وبالتالي، يجب على حزب البروليتاريا ، في نشاطه العملي ، ان لا يستوحي أي سبب طارىء أياً كان ، بل ان يستوحي قوانين التطور الاجتماعي والنتائج

---

(١) البيولوجيا : علم يدرس تركيب الانواع الحية من حيوانية او نباتية وتطورها .

(هيئة التعريب)

العملية التي تنتج من هذه القوانين .

وبالتالي ، تصبح الاشتراكية علماً ، بعد ان كانت فيما مضى حلماً بمستقبل أحسن للانسانية .

وبالتالي ، ينبغي ان يصبح الارتباط والوحدة بين العلم والنشاط العملي ، بين النظريات والعمليات ، الكوكب الذي يهتدي به حزب البروليتاريا .

وبعد ، اذا صح ان الطبيعة ، أو الكائن ، أو العالم المادي هو العنصر الاول، بينما الادراك أو الفكر ، هو العنصر الثاني ، المشتق ، واذا صح ان العالم المادي هو واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن ادراك الناس ، بينما الادراك هو انعكاس هـــذا الواقع الموضوعي ، نتج عن ذلك : ان حياة المجتمع المادية ، او موجود المجتمع ، هو ايضاً العنصر الاول ، أما حياة المجتمع العقليـة فهي عنصر ثان ، مشتق ، وان حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي موجود بصورة

مستقلة عن ارادة الانسان ، أما حياة المجتمع العقلية فهي انعكاس هـــذا الواقع الموضوعي او انعكاس الموجود .

وبالتالي يجب البحث عن منشأ حيـــاة المجتمع العقلية ، وعن أصل الأفكار الاجتماعية ، والنظريات الاجتماعية ، والآراء السياسية ، والاوضاع السياسية ، لا في الافكار والنظريات ، ولا في الآراء و الأوضاع السياسية نفسها، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع، في الموجود الاجتماعي الذي تكوّن هذه الافكار والنظريات والآراء وما اليها انعكاساً له .

وبالتالي ، اذا كنا نشاهد في مختلف أدوار تاريخ المجتمع ، أفكاراً ونظريات اجتماعية مختلفة ، وآراء وأوضاعاً سياسية متباينة ، اذا كنا نجد في ظل نظام الرق هــذه الافكار والنظريات والآراء والاوضاع السياسية نفسها والاوضاع السياسية ، بينما نجد غيرها

في ظل الاقطاعية ، وغيرها أيضاً في ظل الرأسمالية ، فتفسير ذلك ليس في « طبيعة » الافكار والنظريات والآراء والاوضاع السياسية نفسها ولا في خصائصها ، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع في مختلف أدوار التطور الاجتماعي .

فالموجود الاجتماعي وشروط الحياة المادية للمجتمع هي التي تحدد أفكار المجتمع ونظرياته وآراءه السياسية واوضاعه السياسية .

وقد كتب ماركس في هذا الموضوع ما يلي :

« ليس ادراك الناس هو الذي يحـــدد معيشتهم بل على العكس من ذلك أن معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد ادراكهم » « كارل ماركس . مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي المقدمة » .

وبالتالي ، لأجل اجتناب الخطأ في السياسة وعدم الاستسلام لأحلام فارغة، يجب على حزب البروليتاريا ان يؤسس عمله « ليس على « مبادىء العقل الانساني »

المجردة، بل على الظروف الوقعية لحياة المجتمع المادية هذه الظروف التي تؤلف القوة الحاسمة في التطور الاجتماعي ، ويجب عليه ان يبني عمله ليس على « رغبات عظام الرجال » المحمودة ، بل على الحاجات الواقعية الحقيقية لتطور حياة المجتمع المادية .

ان مما يفسر سقوط الطوباويين بمن فيهم الشعبيون والفوضويون ، والاشتراكيون الثوريون ، هو أنهم لم يكونوا يعترفون بالدور الاولي الذي تلعبه ظروف الحياة المادية للمجتمع في تطور المجتمع فقد وقعوا في المثالية، ولم يبنوا نشاطهم العملي على حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع، بل بنوه بصورة مستقلة عن هذه الحاجات وبالرغم منها ، على برامج «مثالية» و « مشاريع عامة» منفصلة عن حياة المجتمع الواقعية.

ان مصدر قوة الماركسية اللينينية وحيويتها ، هو انها تستند في نشاطها العملي الى حاجات تطور

الحياة المادية للمجتمع ، دون ان تنفصل أبداً عن حياة المجتمع الواقعية .

غير أنه لا ينتج من أقوال ماركس ان الافكار والنظريات الاجتماعية، والآراء والاوضاع السياسية، ليس لها شانها أو أهميتها في الحياة الاجتماعية ، أو انها لا تؤثر تاثيراً مقابلاً في المعيشة الاجتماعية، وفي تطور الشروط المادية للحياة الاجتماعية . فنحن لم نتكلم حتى الآن الاعن أصل الافكار والنظريات الاجتماعية، والآراء والاوضاع السياسية، وعن نشوئها وظهورها، فقلنا ان حياة المجتمع الروحية هي انعكاس لظروف حياته المادية . أما من حيث أهمية هـــذه الافكار والنظريات الاجتماعية ، وهـــذه الآراء والاوضاع السياسية ، ومن حيث دورها في التاريخ ، فالمادية التاريخية لا تنكر ذلـك ، بل انهـا على العكس تشير اشارة خاصة الى دورها واهميتها العظيمين في الحياة

الاجتماعية وفي تاريخ المجتمع .

ان الافكار والنظريات الاجتماعية تختلف ، فثمة افكار ونظريات عتيقة فات أوأنها ، وهي تخدم مصالح القوى الآخـــذة بالاضمحلال والفناء في المجتمع . فخطورتها مقتصرة على انها تكبح تطور المجتمع وتعوق رقيه . وثمة افكار ونظريات جديدة ، افكار الطليعة ونظرياتها تخدم مصالح قوى الطليعة في المجتمع ، وأهميتهـــا قائمة على أنهـا تسهل تطور المجتمع ورقيه ، وهي ، فوق ذلك، كلما كان عكسها لحاجات تطور الحياة المادية للمجتمع أصـدق ، كانت الاهمية التي تكتسبها أكبر .

ان الافكار والنظريات الاجتماعية الجـديدة لا تبرز الا عندما يضع تطور الحيـاة المادية للمجتمع ، مهمـــات جديدة امام المجتمـــع ولكنها اذا ما برزت أصبحت قوة ذات أهميـــة من الدرجة العليا، تسهل انجاز المهمات الجديدة التي يضعها

تطور الحياة المادية للمجتمع ، وتسهل رقي المجتمع . وتبدو إذ ذاك أهمية الدور الذي تقوم بـــه الافكار والنظريات الجديدة والآراء والاوضـــاع السياسية الجديدة ، من حيث هي قوةتنظيم وتعبئة وتحويل . وفي الحقيقة ، ان الافكار والنظريات الاجتماعية الجديدة انما تظهر لانهـــا ضرورية للمجتمع ، فبدون عملها المنظم والمعبىء والمحول يستحيل حل المسائل العاجلة الملحة التي يقتضيها تطور الحيـــاة المادية للمجتمع .

فالافكار والنظريات الاجتماعية الجديدة ، التي يبعثها ما يضعه تطور حياة المجتمع المادية من مهمات جديدة ، تشق لنفسها الطريق ، وتتبناهـــا الجماهير الشعبية ، فتعبىء هذه الجماهير وتنظمها ضد القوى المتلاشية في المجتمع ، وتسهل بذلك القضاء على هذه القوى التي تكبح تطور الحياة المادية للمجتمع .

وهكذا اذن الافكار والنظريات الاجتماعيـة ،

والاوضاع السياسية تتولد من المهمات العاجلة التي يضعها تطور الحياة المادية للمجتمع ، ثم تؤثر هي نفسها فيما بعد في المعيشة الاجتماعية، وفي حياة المجتمع المادية ، بخلقها الشروط اللازمة لحل المسائل العاجلة الملحة في حياة المجتمع المادية ، وجعل تطور المجتمع الى الامام ممكناً .

وقد قال ماركس في هذا الموضوع :

« تصبح النظرية قوة مادية منذ سيطرتها على ألباب الجماهير » .

(كارل ماركس ـ نقد فلسفة الحق لهيغل) .

فاذن : لاجل ان يستطيع حزب البروليتاريا التأثير في ظروف الحياة المادية للمجتمع ، وتعجيل تطورها وتحسينها ، يجب عليه ان يستند الى نظرية اجتماعية تفصح بدقة عن حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع ، وتكون بذلك قادرة على تحريك الجماهير

الشعبية الغفيرة، وقادرة على تعبئتها وتنظيمهـــا في جيش حزب البروليتاريا الكبير ، هـــذا الجيش المستعد لتحطيم القوى الرجعية، وشق الطريق للقوى المتقدمة في المجتمع.

ان مما يفسر سقوط « الاقتصاديين » والمنشفيك ، أنهم كانوا لا يعترفون بالدور المعبىء والمنظم والمحول الذي تقوم به نظرية الطليعة ، وفكرة الطليعة . اذ انهم وقعوا في المادية المبتذلة فجعلوا هـــذا الدور في حكم العدم تقريباً ، ولذلك كانوا يحملون الحزب على ان يبقى منفعلاً غير فاعل ، وان يقبع دون نضال ودون عمل.

وان مصدر قوة الماركسية اللينينية ، ومنبع حيويتها، هو انها تستند الى نظرية متقدمة هي نظرية الطليعة، التي تنعكس فيها بدقة حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع ، وانها تضع النظرية في المكان

الرفيـع اللائق بها ، وتعتبر ان من واجبها الاستفادة الى النهاية من قوتها المعبئة والمنظمة والمحولة .

على هـــذه الصورة تحل المادية التاريخية مسألة العلاقات بين الكائن الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، بين ظروف تطور الحياة المادية وتطور الحيـــاة الروحية للمجتمع .

٣ ـ المادية التاريخية : بقيت مسألة تحتـاج الى ايضاح : ماذا ينبغي ان نفهم من وجهة نظر المادية التاريخية ، عندما نقول شروط حياة المجتمع المادية، التي تحدد ، في النهاية ، هيئة المجتمع وافكاره وآراءه واوضاعه السياسية وما اليها ؟

ما هي « شروط حياة المجتمع المادية » ؟ ما هي الخطوط التي تميزها ؟

من المؤكد ان المفهوم « شروط حياة المجتمع المادية » يشمل ، قبل كل شيء ، الطبيعة التي تحيط

بالمجتمع ، او الوسط الجغرافي الذي يؤلف أحـــد الشروط الضرورية الدائمة لحيـــاة المجتمع المادية والذي يؤثر ولا ريب في تطور المجتمع . فما هو أثر الوسط الجغرافي في التطور الاجتماعي ؟ ألا يكون الوسط الجغرافي القوة الرئيسية التي تحدد هيئة المجتمع وتعين طابع نظام الناس الاجتماعي، وتقرر الانتقال من نظام الى آخر ؟

تجيب المادية التاريخية على هـذا السؤال بالنفي . فالوسط الجغرافي هو ، دون جدال ، أحد الشروط الدائمة والضرورية لتطور المجتمع ، ومن المؤكد انه يؤثر في هـذا التطور ، فهو يعجل أو يبطىء سير التطور الاجتماعي ، ولكن ليس هذا التأثير حاسماً ، لان تطور المجتمع وتغـــيراته تجري بصورة أسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافي وتغيراته . فقـد تتالت على اوروبا خلال ثلاثة آلاف سنة، ثلاثة أنظمة

اجتماعية مختلفة هي المشاعية البدائيـــة ، والرق ، والنظام الاقطاعي ، بل تعاقبت في شرق اوروبا ، في اراضي الاتحاد السوفياتي ، أربعة أنظمة ، أما شروط اوروبا الجغرافية فلم تتغير قط خلال هـذه المرحلة نفسها . واذا كان قد طرأ عليهـــا بعض التغير فهو طفيف جداً ، حتى ان الجغرافيين يهملون التحدث عنه . وهذا مفهوم، لان حدوث تغييرات لها شيء من الخطورة فيالوسطالجغرافي يحتاج الى ملايين السنين ، بينما تكفي بضع مئات السنين أو حوالي الفي سنة لحدوث تغييرات هامة جداً فينظام الناس الاجتماعي.

ينتج منذلك انالوسط الجغرافي لا يمكنانيكون السبب الاساسيأو السبب الحاسم للتطور الاجتماعي اذ ان ما يبقى دون تغيير تقريباً ، خـلال عشرات الألوف من السنين ، لا يمكن ان يكون السبب الاساسي لتطور شيء معرض لتغييرات أساسيةخلال

بضع مئات السنين .

ومن المؤكد ايضاً ان نمو السكان وكثافتهم يدخلان في مفهوم « شروط حياة المجتمع المادية » ، لان الناس هم عنصر أساسي لا بد منه في شروط حياة المجتمع المادية ، وبدون حد أدنى من الناس لا يمكن أن تكون هنالك أية حيـاة مادية للمجتمع ، أفلا يكون نمو السكان وكثافتهم القوة الأساسية التي تحدد طابع نظام الناس الاجتماعي ؟

تجيب المادية التاريخية على هـذا السؤال ايضاً بالنفي . لا جرم ان نمو السكان يؤثر في التطور الاجتماعي ، فيسهله أو يبطئه ، ولكن لا يمكن أن يكون القوة الأساسية للتطور الاجتماعي ولا يمكن أن يكون تأثيره فيه تأثيراً حاسماً ، لأن نمو الناس بحد ذاته ، لا يعطينا مفتاح السؤال التالي : لماذا يعقب هذا النظام الاجتماعي ذاك النظام الاجتماعي لا غيره ؟

لماذا يعقب نظام الرق المشاعية البدائية ؟ ولماذا يعقب النظام الاقطاعي نظام الرق ؟ ولماذا يعقب النظام البورجوازي لا غيره ، النظام الاقطاعي ؟

فلو كان نمو السكان هو القوة الاساسية للتطور الاجتماعي ، لكان من الواجب ، بالضرورة ، ان ينشأ عن ازدياد كثافة السكان ، نوع من نظام اجتماعي أعلى وأرقى ، وهو أمر غير واقع . فكثافة السكان هي في الصين أعلى بأربع مرات منها في الولايات المتحدة ، ومع ذلك فالولايات المتحدة هي في مستوى أعلى من الصين (١) من حيث التطور الاجتماعي ، فلا يزال النظام السائد في الصين نظاماً شبه اقطاعي في حين ان الولايات المتحدة قد بلغت منذ أمد طويل المرحلة العليا للتطور الرأسمالي . وكسافة السكان في

---

(١) نلفت نظر القراء الى أن هذا المؤلف قد صدر قبل تحرير الصين من نظام التشان كاي شك ومن الاستعمار الاميركي .

(هيئة التعريب)

بلجيكا أعلى بتسع عشرة مرة منهـــا في الولايات المتحـدة ، وبست وعشرين مرة منها في الاتحـاد السوفياتي، ومع ذلك فالولايات المتحدة هي في مستوى أرقى من بلجيكا من حيث التطور الاجتماعي ، أما بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، فلا تزال بلجيكا متأخرة عهداً تاريخياً كاملاً ، لأن النظـــام الرأسمالي يسود بلجيكا ، في حين ان الاتحاد السوفياتي قـد انتهى من الرأسمالية وأقام النظام الاشتراكي .

ينتج من ذلك ان نمو السكان ليس ولا يمكن أن يكون القوة الاساسية لتطور المجتمع ، أي القوة التي تحدد طابع النظام الاجتماعي وهيئة المجتمع .

أ ـ ولكن ما هي اذن ، في مجموعة شروط حياة المجتمع المادية ، القوة الاساسية التي تحدد هيئة المجتمع وطابع النظام الاجتماعي وتقرر تطور المجتمع من نظام الى آخر ؟

تعتبر المادية التاريخية ان هذه القوة هي اسلوب الحصول على وسائل المعيشة الضرورية لحياة الناس ، أي أسلوب إنتاج الحاجات المادية كالغذاء واللباس والاحذية والمسكن والوقود وأدوات الانتاج..الخ ، التي لا بد منها حتى يستطيع المجتمع ان يحيا وان يتطور .

فلا بد ، لأجل الحياة ، من غذاء ولباس وأحذية ومسكن ووقود الخ ... ولأجل الحصول على هذه الحوائج المادية يجب انتاجها» ولأجل انتاجها لا بد من أدوات الانتاج التي ينتج الناس بمعونتها الغذاء واللباس والاحذية والمسكن والوقود الخ .. ولا بد من معرفة انتاج هذه الادوات ، ولا بد من معرفة استخدامها .

فأدوات الانتاج التي بمعونتها تنتج الحوائج المادية ، والناس الذين يستعملون أدوات الانتاج هذه، وينتجون الحوائج المادية بفضل ما لديهم من تجربة في

الانتاج ومن عادات للعمل ، تلـك هي العناصر التي تؤلف ، بمجموعها ، قوى المجتمع المنتجة .

ولكن القوى المنتجة لا تؤلف الا جانباً واحداً من الانتاج ، أي جانباً واحداً من اسلوب الانتـاج ، وهو الجانب الذي يعبر عن سلوك الناس نحو اشياء الطبيعة وقواها التي يستخدمونها لأنتـــاج الحوائج المادية . إما الجانب الآخر للانتاج ، أي الجانب الآخر لاسلوب الانتاج ، فهو علاقة الناس فيما بينهم اثنــــاء سير الانتاج ، أو ما يسمى علاقات الانتاج بين الناس. فالناس في نضالهم ضد الطبيعة التي يستثمرونها لانتاج الحوائج المادية ، ليسوا منفردين ، منعزلين بعضهم عن بعض ، وليسوا أفراداً أحدهم منفصل عن الآخر ، بل هم ينتجون معاً في جماعات أو جمعيـــات . . فالإنتاج هو ، دائماً ومهما تكن الشروط ، انتاج اجتماعي.

ففي اثناء انتاج الحوائج المادية يقيم النـــاس فيما

بينهم هذه العلاقات أو تلك ضمن نطاق الانتـــاج ، أي يقيمون فيمابينهم هذه أو تلك من علاقات الانتاج. ويمكن ان تكون هذه العلاقات علاقات تعـــاون وتعاضد بين أناس محررين من كل استثمار ، ويمكن ان تكون علاقات سيطرة وخضوع ، كما يمكن ان تكون علاقات انتقال شكل من أشكال علاقات الانتـاج الى شكل آخر . ولكن مهما يكن الطابـع الذي تتسم بـه علاقات الانتاج فهي دائمًا وتحت كل الانظمة ، عنصر ضروري لا غنى عنه في الانتاج ، مثلها في ذلك مثل قوى المجتمع المنتجة سواء بسواء .

يقول ماركس :

في الانتاج ، لا يؤثر الناس في الطبيعة فقط ، بل يؤثر بعضهم في البعض الآخر ايضاً ، فهم لا ينتجون الا بالتعاون فيما بينهم على شكل معين ، وبتبـــادل النشاط فيما بينهم . ومن أجـل أن ينتجوا ، يدخل

بعضهم مع بعض في صلات وعلاقات معينة ، ولا يتم تأثيرهم في الطبيعة ، أي لا يتم الانتاج ، الا في حدود هذه الصلات والعلاقات الاجتماعية . (كارل ماركس: العمل المأجور ورأس المال) .

يستخلص من ذلك ان الانتاج ، أو اسلوب الانتاج ، يشمل قوى المجتمع المنتجة كما يشمل علاقات الانتاج بين الناس سواء بسواء ، ففيه يتجسد اتحاد الطرفين خلال عملية انتاج الحوائج المادية .

ب ـ الخاصة الاولى للانتاج انه لا يقف أبداً مدة طويلة في نقطة معينة : فهو دائماً في حالة تغير ونمو . وعلاوة على ذلك ، فان تغير أسلوب الانتاج يؤدي بصورة حتمية الى تغير النظام الاجتماعي بأسره ، وتغير الافكار الاجتماعية والآراء والمؤسسات السياسية . أن تغير اسلوب الانتاج يؤدي الى صهر النظام الاجتماعي والسياسي كله صهراً جديداً .

ويستخدم الناس في مختلف درجات التطور ، أدوات انتاج مختلفة أي انهم ، بعبارة أبسط يحيون حياة مختلفة . ففي المشاعية البدائية اسلوب للانتاج ، وفي الرق اسلوب آخر ، وفي الاقطاعية اسلوب ثالث ، وهكذا . ويختلف نظام الناس الاجتماعي ، وتختلف حياتهم العقلية ، وآراؤهم ، ومؤسساتهم السياسية ، حسب أساليب الانتاج هذه .

ان المجتمع ذاته ، وأفكاره ونظرياته ، وآراءه ومؤسساته السياسية ، تتعلق ، من حيث الاساس ، باسلوب الانتاج في المجتمع .

أو بعبارة أبسط : كل نمط من المعيشة ، يطابقه نمط من التفكير .

ومعنى هذا ان تاريخ تطور المجتمع ، هو ، قبل كل شيء ، تاريخ تطور الانتاج، تاريخ أساليب الانتاج التي تتعاقب خلال العصور ، تاريخ تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج بين الناس .

وبالتالي ، فان تاريخ التطور الاجتماعي هو في الوقت نفسه تاريخ منتجي الحوائج المادية ، تاريخ الجماهير الكادحة التي هي القوى الاساسية في عملية الانتاج والتي تنتج الحوائج المادية الضرورية لمعيشة المجتمع .

وبالتالي ، اذا أراد العلم التاريخي ان يكون علماً حقيقياً كان عليه أن لا يقصر تاريخ التطور الاجتماعي على اعمال الملوك وقادة الجيوش ، أعمال « الفاتحين » و « مستعبدي » الدول ، بل ان يهتم قبل كل شيء ، بتاريخ منتجي الحوائج المادية ، تاريخ الجماهير الكادحة ، تاريخ الشعوب .

فاذن : يجب ان لا نبحث عن المفتاح الذي يسمح لنا بالكشف عن قوانين تاريخ المجتمع ، في أدمغة الناس ؛ أو في آراء المجتمع وأفكاره ، بل يجب ان نبحث عنه في اسلوب الانتاج الذي يمارسه المجتمع

خلال كل دور من أدوار التاريخ ، أي في حيـــاة المجتمع الاقتصادية .

وبالتالي ، فمهمة العـــلم التاريخي الرئيسية هي دراسة وكشف قوانين الانتاج ، وقوانين تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، او قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع .

وبالتالي ، اذا أراد حزب البروليتاريا أن يكون حزباً حقيقياً ، فيجب عليه ان يتعلم ، قبل كل شيء ، علم قوانين تطور الانتاج» وقوانين التطور الاقتصادي للمجتمع .

وبالتالي ، يجب على حزب البروليتاريا، لاجتناب الخطأ في السياسة أن يستوحي، قبل كل شيء ، في وضع برنامجه ، كما في نشاطه العملي ، قوانين تطور الانتاج وقوانين التطور الاقتصادي للمجتمع .

ج ـ خاصة الانتاج الثانية هي ان تطوره

وتغيراته تبدأ دائماً بتغير القوى المنتجة وتطورها ، وبتغيير وتطور أدوات الانتاج قبل غيرها . فالقوى المنتجة هي اذن أكثر عناصر الانتاج حركة وثورة . ففي بادىء الأمر تتعـــدل القوى المنتجة في المجتمع وتتطور ، وبعدئذ ، تبعاً لهذه التعديلات وطبقاً لها، تتعدل علاقات الانتاج بـــين الناس أي علاقاتهم الاقتصادية . غير ان ذلك لا يعني ان علاقات الانتاج لا تؤثر في تطور القوى المنتجة ، أو هــذه لا تتعلق بتلك ، فان علاقات الانتاج ، التي يتعلق تطورهـــا بتطور القوى المنتجة ، تؤثر بدورها في تطور القوى المنتجة ، فتجعله أو تبطئه . ومن المهم انـ نلاحظ علاوة على ذلك ، ان علاقات الإنتاج لا يمكن ان تتأخر أمداً طويلاً عن نمو القوى المنتجة وأن تبقى فيتناقض مع هذا النمو لأن القوى المنتجة لا تستطيع انتتطور تطوراً تاماً الا عندما تكون علاقات الانتاج مطابقة

لطابع القوى المنتجة وحالتها ، وتفسح لهـــا مجال التطور بحرية . ولذلك فمهما تأخرت علاقات الأنتاج عن تطور القوى المنتجة ، فلا بد من ان ينتهي بهـــا الأمر ـ وهو فعلاً ينتهي ـ بالمطابقة بينها وبين مستوى تطور القوى المنتجة ، وان تتخذ طابعاً يلائم طابع هذه القوى المنتجة ، والا تعرضت الوحدة التي تجمع ، في نظام الانتاح بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج الى خطر التفكك ، فيؤدي ذلك الى حـــدوث انقطاع في مجموع الانتاج ، الى وقوع أزمـــة في الانتاج ، الى تحطيم القوى المنتجة .

في الاقطار الرأسمالية ـ حيث الملكية الخاصة الرأسمالية ، لوسائل الانتاج ، تناقض ، بصورة بينة ، الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج ، أي طابع القوى المنتجة ـ تكون الازمات الاقتصادية مثـــالاً للتنافر والخلاف بين علاقات الانتاج وطابع القوى المنتجة ، ومثالاً للنزاع الناشب بينها . فان الازمات الاقتصادية

التي تؤدي الى تحطيم القوى المنتجة ، هي نتيجة هـذا الخلاف . وعلاوة على ذلك ، فان هذا الخلاف نفسه هو الأساس الاقتصادي للثورة الاجتماعية المدعوة الى هدم علاقات الانتاج الحالية ، وخلق علاقات جديدة مطابقة لطابع القوى المنتجة .

أما الاقتصاد الاشتراكي في اتحـــاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ـ حيث الملكية الاجتماعيـــة لوسائل الانتاج هي في توافق تام مع الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج ، وحيث لا نجد ، بالتالي ، لا ازمات اقتصادية ولا تحطيماً للقوى المنتجة ـ فهو مثـــال للاتفاق التام بين علاقات الانتـــاج وطابع القوى المنتجة .

فاذن ، ليست القوى المنتجة اكثر عناصر الانتاج حركة وثورة فقط ، بل هي ايضاً العنصر الحاسم في تطور الانتاج .

وكما تكون القوى المنتجة ، كذلك يجب ان تكون علاقات الانتاج .

وإذا كانت حالة القوى المنتجة تبين بأية أدوات انتاج ينتج الناس الحوائج المادية الضرورية لهم ، فان حالة علاقات الانتاج تبين من جهتها من الذي يملك وسائل الانتاج (الارض ، الاحراج ، المياه ، باطن الارض ، المواد الاولية ، أدوات الانتاج ، ابنيـــة الاستثمار ، وسائل النقل والمواصلات الخ ..) من الذي يتصرف بوسائل الانتاج ؟ هل هي تحت تصرف المجتمع باسره أم تحت تصرف أفراد أو جماعات أو طبقات يستخدمونها لاستثمار أفراد آخرين أو جماعـــات اخرى أو طبقات أخرى ؟

وفيما يلي لوحة تبـين الخطوط الكبرى لتطور القوى المنتجة منذ أقدم الازمنة الى يومنا هذا : الانتقال من الأدوات الحجرية الغليظة الى القوس والسهام ،

وبالتالي ، الانتقال من الصيد الى أستخدام الحيوانات وتربية المواشي بشكل بدائي، ثم الأنتقال من الأدوات الحجرية الى المعدنية (الفأس الحديدية المحراث البدائي المجهز بسكة مصنوعة من حديد الخ ...) وبالتالي الانتقال الى غرس النباتات ، الى الزراعة ، ومن ثم اجراء تحسين جديد في الأدوات المعدنية لأجل صنع مختلف المواد وظهور الكور ذي ألمنفاخ ، وصناعة الأواني الفخارية ، وبالتالي ، تطور الحرف، وانفصال الحرف عن الزراعة وتطور الحرف المستقلة أولاً ، ثم المانيفاكتوره (١) فيما بعد ، ثم الانتقال من أدوات

(١) المانيفاكتورة : شكل من اشكال الانتاج نشأ في عهد انحلال الاقطاعية مع تطور التجارة وازدياد ألطلب على المنتجات المصنوعة ، فقد كان التجار يشترون قبلا من الصناع الحرفيين منتجاتهم ليبيعوها بدورهم ، ثم اخذوا يقدمون لهم المواد الاولية ليصنعها الصناع بادواتهم ، ثم اخذ التاجر يجمع عددا من الحرفيين تحت سقف واحد ، في مكان واحد ، ويقدم لهم المواد الاولية وادوات ألانتاج ايضا ، وقد سمي هذا المكان بالمانيفاكتوره ، وهكذا انقلب الراسمال التجاري الى راسمال صناعي ، واصبح ألصانع الحرفي عاملا مأجورا ليس لديه سوى قوة عمله يبيعها للراسمالي ويعمل مع زملائه تحت اشرافه في المانيفاكتوره ، (هيئة التعريب)

ثم الانتقال من ادوات الانتاج الحرفي الى الآلة ، وتحويل الانتاج الحرفي ـ المانيفـاكتوري « الى صناعة ممكنة ومن ثم الانتقال الى نظـام الآلات وظهور الصناعة الميكانيكية الحديثة الكبرى .

هذه هي بصورة اجمالية وغير كاملة اللوحـة التي تبين تطور قوى المجتمع المنتجة طيـلة تاريخ البشرية ، ولا حاجة الى القول ان تطور ادوات الانتاج وتحسينها لم يحدثا بصورة مستقلة عن الناس بل حققهما الناس الذين لهم علاقة بالانتاج . واذن : فالناس الذين هم عنصر أساسي في القوى المنتجـة ـ يتغيرون ويتطورون بتغير أدوات الانتاج وتطورها . فقـد رأينا ان تجربتهم في الانتـاج ، وعاداتهم في العمل ، وقدرتهم عل استعمال أدوات الانتاج ، قـد تغيرت وتطورت .

وطبقاً لهذه التغيرات وهذا التطور في قوى المجتمع المنتجة خلال التاريخ ، تغيرت وتطورت علاقات الانتاج بين الناس « أي علاقاتهم الاقتصادية .

ولقد سجل التاريخ خمسة انواع أساسية لعلاقات الانتاج : المشاعية البدائية ، الرق ، النظام الاقطاعي النظام الرأسمالي ، والنظام الاشتراكي .

في نظام المشاعية البدائية ، تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الانتاج « أساس علاقات الانتاج . وذلك يطابق من حيث الأساس طابع القوى المنتجة في هذا الدور . فالأدوات الحجرية وكذلك القوس والسهام التي ظهرت فيما بعد ، لم تكن تسمح للناس بأن يناضلوا منفردين ضد قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة . فلأجل قطف الاثمار في الغابات. ولأجل صيد السمك» ولأجل بناء مسكن ما ، كان الناس مجبرين على العمل

معاً بصورة مشتركة،اذا ماأرادوا اجتناب الموت جوعاً أو الوقوع فريسة للحيوانات الضارية أو للقبائل المجاورة. ويؤدي العمل المشترك الى الملكية المشتركة لوسائل الانتاج وللمنتجات ايضاً . فهنا ، اذا استثنينا الملكية الفردية لبعض أدوات الانتاج التي تؤلف في الوقت نفسه أسلحة دفاع ضد الحيوانات المفترسة، لم نجد معنى لمفهوم الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هنا : لا استثمار ولا طبقات .

وفي نظام الرق تؤلف ملكية سيد العبيد لوسائل الانتاج وللشغيل أي للعبد الذي يستطيع بيعه وشراءه وقتله كالماشية ـ أساس علاقات الانتاج،وعلاقات انتاج كهذه تطابق من حيث الاساس ، حالة القوى المنتجة في هذا الدور . فعوضا عن الأدوات الحجرية أصبحت عند الناس الآن أدوات معدنية ، وبدلاً من اقتصاد

يقتصر على صيد بدائي فقير ويجهل تربيـة المواشي والزراعة « نشهد ظهور تربية المواشي، والزراعـــة وحرف شتى ، وتقسيم العمل بين هذه الفروع المختلفة للانتاج ، كما نشهد ظهور امكان تبادل المنتجات بين الافراد والجماعات وامكان تراكم الثروة بين أيدي عدد ضئيل من الناس وتكدس وسائل الانتاج بصورة فعلية في أيدي اقلية وامكان جعل الاكثرية خاضعة للاقلية وتحويل أكثرية الناس إلى عبيد . فهنـا لم يبق عمل مشترك حر يقوم به جميع أعضاء المجتمع خلال سير الانتاج . هنا يسود العمل الاجباري عمل عبيـــد يستثمرهم سادة عاطلون منعمون ، ولهذا لم تبق ايضاً ملكية مشتركة لوسائل الانتاج ولا للمنتجات اذ قـد حلت محلها الملكية الخاصة . هنا : يصبح سيد العبيد هو المالك الأول والرئيسي ، المالك المطلق :

أغنياء وفقراء ، مستثمرون ومستثمرون، أناس

لهم كل الحقوق، وأناس ليس لهم أي حق نضال حقيقي طبقي حاد بين هؤلاء واولئك : تلك هي لوحة نظام الرق ! .

وفي النظــــام الاقطاعي تؤلف ملكية النبيل الاقطاعي لوسائل الأنتاج ، وملكيته المحدودة للشغيل ـ وهو القن الذي لم يعد في استطاعة الاقطاعي قتله ، غير ان في امكانه بيعــــه وشراؤه ـ أساس علاقات الانتاج . ونجد الى جانب الملكية الاقطــاعية ، ملكية الفلاح والحرفي الفردية المشتملة على أدوات الانتاج، وعلى اقتصادهما الخاص المؤسس على العمـــل الشخصي . وعلاقات الانتاج هذه تطـابق من حيث الأساس حالة القوى المنتجة في هذا الدور . فان تحسين الحديد الصب واتقان معالجة الحديــــد ، وتعميم استعمال المحراس ونول النسيج وتطور الزراعـــة

والبستنة وصناعة الخمور وصنـــاعة الزيت تطوراً مستمراً ، وظهور المانيفاكتورات الى جانب ورشات الحرفيين ، كل ذلك يؤلف الخصائص المميزة لحـالة القوى المنتجة .

وتتطلب القوى المنتجة الجديدة من الشغيل ان يبدي شيئاً من المبادهة والابتكار في الانتاج ، وذوقاً فيما يصنع ، واهتماماً بالعمل. ولذلك يتخلى النبيل الاقطاعي عن العبد الرقيق الخالي من كل اهتمام بالعمل ، والمحروم من كل مبادهة على الاطلاق ، ويفضل ان يعامل قنا يملك اقتصاده الخاص وأدوات الانتاج ، ولديه شيء من الاهتمام بالعمل ، هذا ألاهتمام الذي لا بد منه حتى يزرع الارض ويدفع حصة من عـــين محصوله الى الاقطاعي .

وهنا تتابع الملكية الخاصة تطورهـــا ، ويبقى

الاستثمار تقريباً على مثل قسوته في عهد الرق ، يكاد ان لا يلين الا قليلا . فالنضال الطبقي بين المستثمَرين والمستثمرين ، هو الميزة الأساسية للنظام الاقطاعي .

في النظام الرأسمالي ، تؤلف الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج ، أساس علاقات الانتاج أما امتلاك المنتجين ، أي العمال المأجورين ، فليس له وجود ، ولا يستطيع الرأسمالي قتلهم ولا بيعهم، لأنهم محررون من كل تبعية شخصية . غير انهم محرومون من وسائل الانتاج وهم مضطرون ، لكي لا يموتوا جوعاً ، ان يبيعوا قوة عملهم للرأسمالي وان يعانوا نير الاستثمار. وهنالك الى جانب الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج ، ملكية الفلاح والحرفي الخاصة لأدوات الانتاج ، بعدما تحررا من القنانة ، فقد كانت هذه الملكية المؤسسة على العمل الشخصي ، منتشرة انتشاراً واسعاً في بادىء

الأمر . وحلت المصانع والمعـــامل العظيمة المجهزة بالآلات ، محل ورشات الحرفيين والمانيفاكتورات ، كما ان الاستثمارات الرأسمالية الكبيرة التي تدار على أساس العلم الزراعي والمجهزة بالآلات الزراعية، حلت محل املاك النبلاء التي كانت تزرع بواسطة أدوات الفلاحين البدائية .

وهذة القوى المنتجة الجديدة تتطلب من الشغيلة ان يكونوا أكثر ثقافة وذكاء من الاقنـــان الجاهلين البلداء ، وأن تكون لديهم الكفاءة اللازمة لفهم الآلة ، وان يجيدوا استعمالهـا كما ينبغي . ولهـــذا يفضل الرأسماليون ان يتعاملوا مع عمال ماجورين محررين من قيود القنانة ، وحائزين على ثقافة كافية تساعدهم على استعمال الآلات استعمالاً لائقاً .

ولكن الرأسمالية ، لسبب تنميتها القوي ألمنتجة بنسبة هائلة ، وقعت في تناقضات لا تستطيع حلها .

فهي بانتاجها كميات متزايدة من البضائع ، وبانقاصها اسعار هذه البضائع ، تزيد المزاحمة تفاقماً وإشتداداً وترمي جماهير الملاكين الفرديين الصغار والمتوسطين في الخراب والدمار ، وتجعلهم في حالة البروليتاريين وتخفض مقدرتهم الشرائية ، وتكون النتيجة ان تصريف البضائع المصنوعة يصبح مستحيلاً . ان الرأسمالية ، بتوسيعها الانتاج وبجمعها ملايين العمال في مصانع ومعامل عظيمة: تطبع عملية الانتاج بطابع اجتماعي ، وبذلك تنخر قاعدتها بنفسها ، لان الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج ، يتطلب ملكية اجتماعية لوسائل الانتاج ولكن ملكية وسائل الانتاج تبقى ملكية خاصة رأسمالية غير متلائمة مع الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج .

ان هذه التناقضات المستعصية ، بين طابع القوى

المنتجة وعلاقات الانتاج تظهر في أزمات فيض الانتاج الدورية ، فنرى الرأسماليين ، نظراً لعدم وجود شراة قادرين على الدفع بسبب خراب الجماهير الذي تقع مسؤوليته عليهم أنفسهم ، يضطرون الى حرق المحصولات واتلاف البضائع الجاهزة ، ووقف الانتاج، وتحطيم القوى المنتجة ، بينما ملايين الناس يقاسون آلام البطالة والجوع لا لفقدان البضائع بل لكثرة ما انتج منها .

ومعنى هذا ، ان علاقات الانتاج الرأسمالية لم تعد مطابقة لحالة القوى المنتجة ، بل دخلت معها في تناقض مستعص .

معنى هذا ، ان الرأسمالية تحمل في صلبها ثورة مدعوة الى احلال الملكية الاشتراكية محل الملكية الرأسمالية الحالية لوسائل الانتاج .

معنى هذا ، ان نضالاً طبقياً حاداً من أشد مــــا عرف« بين المستثمرين والمستثمرين،هو الميزةالأساسية للنظام الرأسمالي .

في النظام الاشتراكي الذي لم يتحقق ، حتىالآن، الا في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، تؤلف الملكيةالاجتماعية لوسائلالانتاج أساس علاقاتالانتاج. هنا لم يبقلا مستثمرون ولا مستثمرونوتوزع المنتجات حسب العمل الذي يقدمه كل انسان ، وتبعاً للمبدأ القائل : « من لا يشتغل لا ياكل » . أما العلاقات بين الناس في عملية الانتاج » فهي علاقات تعاون أخوي وتعاضد أشتراكي بين شغيلة محررين من ا لاستثمار . وعلاقاتالانتاج هذه مطابقة تماماً لحالة القوى المنتجة، لان الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج ، يجد دعامة له في الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج .

هذا ما يجعل الانتاج الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي يجهل أزمات فيض الانتاج الدورية وكل ما يرافقها من غرائب خرقاء .

هذا ما يجعل القوى المنتجة هنا تتطور بسرعة متزايدة لأن علاقات الانتاج المطابقة لها تفسح لهذا التطور مجالا حراً رحيباً .

تلك هي لوحة تطور علاقات الانتاج بين الناس، خلال تاريخ الانسانية .

هكذا يسير تطور علاقات الانتاج تبعاً لتطور القوى المنتجة في المجتمع ، وتبعاً لتطور أدوات الانتاج قبل كل شيء . وهذه التبعية هي التي تجعل التغير والتطور في القوى المنتجة يؤديان، عاجلاً أو آجلاً ، الى تغير وتطور مطابقين في علاقات الانتاج .

يقول ماركس :

« ان استعمال وسائل العمل (١) وصنعها هما من مميزات العمل البشري بوجه خاص ، وان كنا نجدهما في حالة جرمية عند بعض الانواع الحيوانية . ولهـذا السبب يعرف « فرانكلين » الانسان بقوله : « الانسان هو حيوان يصنع أدوات » (A. Tool Making Animal) (1) هذا وان بقايا وسائل العمل القديمة لها من الأهمية في درس الأشكال الاقتصادية للمجتمعات المندثرة ، ما لتركيب العظام المدفونة في الأرض من أهمية في معرفة تنظيم العروق المنقرضة . وان ما يميز

---

(١) يعني ماركس بـ « وسائل العمل » ادوات الانتاج على الخصوص . (ملاحظة يوسف ستالين)

(١) هذه العبارة موجودة بالانكليزية في الاصل .

(هيئة التعريب)

عهداً اقتصادياً عن عهد آخر ، هو طريقة صنع الشيء اكثر من الشيء المصنوع ذاته . فوسائل العمل هي مقاييس تطور الشغيل ومرآة مستوى العلاقات الاجتماعية التي يعمل ضمنها » (كارل ماركس : رأس المال ـ المجلد الأول ـ الجزء الأول ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ، مكتب المطبوعات ـ باريس ١٩٣٨) .

ويقول في مكان آخر :

« ان العلاقات الأجتماعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوى المنتجة . وعندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة ، يغيرون أسلوبهم في الانتاج ، وبتغييرهم اسلوب الانتاج، أي بتغييرهم طرق اكتساب معيشتهم، يغيرون كل علاقاتهم الاجتماعية . فطاحونة الهواء تعطيك مجتمع الحاكم الاقطاعي ، والطاحونة البخارية تعطيك مجتمع الرأسمالي الصناعي. » (كارل ماركس:

بؤس الفلسفة،جواب على فلسفة البؤس للسيدبرودون ص ٩٩ ـ مكتب المطبوعات ـ باريس ١٩٣٧) .

« ان هنالك حركة نمو مستمرة فيالقوى المنتجة ، وحركة تهديم مستمرة فيالعلاقات الاجتماعية، وحركة تكون مستمرة في الأفـــكار ، وليس من شيء ثابت سوى تجريد الحركة » (المرجع ذاته ص ٩٩) .

ويعطي انجلس في مقدمة «بيان الحزب الشيوعي» التعريف التالي للمادية التاريخية :

« ان الانتاج الاقتصادي ، والبناء الاجتماعي الذي ينتج منه بالضرورة ، يؤلفان ، في كل عهـد تاريخي ، أساس التاريخ السياسي والفكري لهـــذا العهد ... وبالتالي فكل التاريخ منـذ انحلال ملكية الأرض المشاعيةالبدائية، هو تاريخصراع بينطبقاتصراع بين طبقاتمستثمرة وطبقاتمستثمرة،بينطبقاتمسودة

وطبقـات سائدة ، في مختلف مراحل تطورهـــا الاجتماعي ... وقد بلغ هذا الصراع في الوقت الحاضر مرحلة أصبحت فيهـــا الطبقة المستثمرة المضطهدة (البروليتاريا) لا تستطيـع أن تتحرر من الطبقة التي تستثمرها وتضطهدها (البورجوازية) دون ان تحرر ، في الوقت نفسه والى الأبد ، المجتمع باسره من الاستثمار ومن الاضطهاد ومن صراع الطبقـــات » (مقدمـة فريدريك انجلز للطبعة الالمانية (١٨٨٣) لبيان الحزب الشيوعي ـ ص ٦ ـ مكتب المطبوعات باريس ١٩٣٨) .

د ـ خاصة الانتاج الثالثة ، هي ان القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج التي تطابقها ، لا تنشأ خارج المجتمع القديم بعد زواله ، بل تنشأ في قلب النظـــام القديم نفسه ، فهي ليست نتيجة عمـــل واع مقصود

يقوم به الناس ، بل تبرز عفواً وبصورة مستقلة عن وعي الناس وارادتهم ، ويعود ذلك الى سببين :

اولاً ـ لأن الناس ليسوا أحراراً في اختيار أسلوب الانتاج ، فكل جيل جديد يجد عند دخوله الحيـاة ، قوى منتجة وعلاقات انتاج جاهزة ، خلقهـا عمل الأجيال السابقة . فكل جيل جديد مضطر ان يقبل ، في البداية ، كل ما يجده جاهزاً في ميدان الانتاج وان يالفه ليستطيع انتاج الحاجات المادية .

ثانياً ـ لأن الناس عندما يحسنون هذه أو تلك من أدوات الانتاج ، وهذا أو ذلك من عنـاصر القوى المنتجة ، لا يدركون النتائج الاجتماعية التي يجب ان تؤدي اليها هذه التحسينات ، بل هم لا يفهمونها ولا تخطر لهم في بال ، فهم لا يفكرون الا في مصالحهم اليومية ، وفي تسهيل عملهم ، وفي الحصول على فائدة

مباشرة وملموسة .

فلما بدأ بعض اعضاء المشاعية البدائية ، شيئاً فشيئاً ، يتلمسون الانتقال من الأدوات الحجرية إلي الأدوات الحديدية ، كانوا ، ولا ريب ، يجهلون النتائج الاجتماعية التي سيؤدي اليها هذا التجديد. كانوا لا يفكرون فيها ، وكانوا لا يدركون ولا يفهمون ان ادخال الأدوات المعدنية يعني ثورة في الانتاج ، وسيؤدي في النهاية الى نظام الرق . وغاية ما كانوا يريدون هو ان يسهلوا عملهم ويحصلوا على فائدة مباشرة ملموسة . فكان نشاطهم الواعي مقتصراً على نطاق ضيق ، هو نطاق هذه الفائدة الشخصية اليومية .

ولما أخذت البورجوازية الفتية الاوروبية « في عهد النظام الاقطاعي ، تبني ، الى جانب ورشات الحرفيين الصغيرة ، مانيفاكتورات كبيرة ، وترقي

بذلك قوى المجتمع المنتجة ، كانت، دون أدنى ريب ، تجهل النتائج الاجتماعية التي سيؤدي اليها هذا التجديد، كانت لا تفكر في ذلك ، كانت لا تدرك ولا تفهم ان هذا التجديد « الصغير » سيؤدي الى حدوث تجمع جديد في القوى الاجتماعية وان هذا التجمع سينتهي بثورة ضد سلطة الملك التي كانت البورجوازية تخطب ودها، وكذلك ضد طبقة النبلاء التي كان أحسن ممثلي هذه البورجوازية يحلمون غالباً بالدخول في صفوفها . فكل ما كانت تريده هو انقاص تكاليف انتاج البضائع ، والقاء أكبر كمية من البضائع في اسواق آسيا ، وفي أسواق اميركا التي أكتشفت حديثاً،وزيادة أرباحها . فكان نشاطها الواعي منحصراً في نطاق ضيق ، هو نطاق هذه المصالح العملية اليومية .

ولما راح الرأسماليون الروس بالاتفاق مع

الرأسماليين الأجانب ، يؤسسون في روسيا ، بهمة ونشاط، الصناعة الكبرى الحديثة المجهزة بالآلات دون ان يمسوا القيصرية مع ترك الفلاحين طعاماً سائغاً لكبار ملاكي الأرض ، كانوا دون ريب يجهلون النتائج الاجتماعية التي سيؤدي اليها هذا النمو العظيم في القوى المنتجة . كانوا لا يفكرون في ذلك ، وكانوا لا يدركون ولا يفهمون ان هذه القفزة الخطيرة للقوى المنتجة في المجتمع ستؤدي إلى تجمع جديد للقوى الاجتماعية ، وان هذا التجمع سيسمح للبروليتاريا بان تتحد مع الفلاحين وتحقق انتصار الثورة الاشتراكية فكل ما كانوا يريدون هو توسيع الانتاج الصناعي الى اقصى حد وتامين سيادتهم في سوق داخلية عظيمة واسعة ، واحتكار الانتاج وابتزاز أكبر ربح ممكن من الاقتصاد الوطني . فما كان نشاطهم الواعي ليتجاوز حدود مصالحهم

اليوميـة العملية المحضة .

وقد قال ماركس في هذا الموضوع :

« ان الناس اثناء الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم (أي اثناء انتاج الحوائج المادية الضرورية لحياة الناس ـ (ملاحظة من يوسف ستالين) يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ، ضروريـة مستقلة عـن ارادتهم . وتطـابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قوام المنتجة المادية » . (كارل ماركس : مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، المقدمة) .

ولكن ذلك لا يعني ان تغير علاقات الانتـاج والانتقال من علاقات الانتاج القديمة إلى الجديدة ، يجريان على خط مستقيم ، دون نزاعات ودون هزات بل على العكس « يجري هـذا الانتقال عادة بقلب

علاقات الانتاج القديمة قلباً ثورياً ، وباقامة العلاقات الجديدة مكانها. فإن تطور القوى المنتجة والتغييرات في ميدان علاقات الانتاج ، تجري ، خلال مرحلة معينة ، بصورة عفوية مستقلة عن إرادة الناس. ولكن ذلك لا يدوم إلا إلى حين ، أي الى أن تصبح القوى المنتجة ، التي برزت وأخذت تتطور ، في درجة كافية من النضج. فعندما تبلغ القوى المنتجة الجديدة حد النضج ، تتحول علاقات الانتاج الموجودة والطبقات التي تمثلها ، الى حاجز « كؤود » لا يمكن ازاحته من الطريق الا بالنشاط الواعي للطبقات الجديدة ، وبعملها العنيف ، أي بالثورة . ويظهر اذ ذاك ، بشكل رائع ، الدور العظيم الذي تلعبه الافكار الاجتماعية الجديدة والمؤسسات النسياسية الجديدة والسلطة السياسية الجديدة ، المدعوة الى الغاء علاقات الانتاج القديمة ومحوها بالقوة . فعلى أساس

النزاع بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة » وعلى أساس حاجات المجتمع الاقتصادية الجديدة ، تتولد افكار اجتماعية جديدة. وهذه الافكار الجديدة تنظم الجماهير وتعبئها ، فتتحد الجماهير في جيش سياسي جديد ، وتخلق سلطة ثورية جديدة ، تستخدمها لالغاء النظام القديم في ميدان علاقات الانتاج ومحوه بالقوة ، وتشييد نظام جديد فيه .

وهكذا يحل نشاط الناس الواعي محل سير التطور العفوي ، ويحل الانقلاب العنيف محل التطور السلمي ، وتحل الثورة محل التطور التدريجي .

ويقول ماركس ،

« ان البروليتاريا ، في نضالها ضد البورجوازية ، تتكون حتماً من طبقة ، وتنصب نفسها بالثورة ، طبقة سائدة ، وبصفتها طبقة سائدة ، تحطم بالعنف

نظام الانتاج القـديم » (كارل ماركس وفريدريك انجلس : بيان الحزب الشيوعي ـ ص ٣٣ ـ مكتب المطبوعات ـ باريس ـ ١٩٣٣) .

ويقول في مكان آخر :

« ان البروليتاريا ستستخدم سيادتهـــا السياسية لانتزاع رأس المال شيئاً فشيئاً من البورجوازية ، ولجمع كل أدوات الانتاج في أيدي الدولة ، أي في أيدي البروليتاريا المنظمة في طبقة سائدة ، ولزيادة كمية القوى المنتجة بأسرع ما يكون » (المرجع ذاتـــه ص ـ ٣٢) .

« العنف هو المولد لكل مجتمع قـــديم يتمخض بمجتمع جديد » (كارل ماركس : رأس المال ـ المجلد الاول ـ الجزء الثالث ـ ص ٢١٣ ـ باريس ١٩٣٩) .

وقد عرّف ماركس في المقدمة التاريخية لمؤلفه المشهور: « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » (١٨٥٩) جوهر المادية التاريخية تعريفاً عبقرياً فقال:

« ان الناس أثناء الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم. وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية. ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي وتطابقه كذلك اشكال معينة من الوعي الاجتماعي. ان اسلوب انتاج الحياة المادية يكيف تفاعل الحياة الاجتماعي، والسياسي والفكري، بصورة عامة. فليس ادراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم، بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد ادراكهم. وعندما تبلغ قوى المجتمع

المنتجة المادية درجة معينة في تطورها ، تدخـــل في تناقض مع علاقات الانتاج الموجودة ، او مع علاقات الملكية ـ وليست هذه سوى التعبير الحقوقي لتلك ـ التي كانت الى ذلك الحين متحركة ضمنها . فبعدما كانت هذه العلاقات أشكالاً لتطور القوى المنتجة ، تصبح قيوداً لهذه القوى ، وعندئذ ينفتح عهـــد ثورات اجتماعية . فان تغيير الأساس ألاقتصادي يزعزع كل البناء الفوقي الهائل على صور مختلفة من السرعة أو البطء . وعند دراسة هذه الانقلابات ينبغي دائمـــاً التمييز بـين الانقـلاب المـادي لشروط ألانتـــاج الاقتصادية ـ هذا الانقلاب الذي يشاهـــد بالضبط الخاص في علوم الطبيعة ـ وبين الأشكال الحقوقية ، والسياسية ، والدينية ، والفنيـــة ، والفلسفية ، أو بكلمة مختصرة ، الاشكال الفكرية التي يتصور فيها الناس هذا النزاع ويكافحونه . فكما انه لا يمكن الحكم

على فرد وفقاً للفكرة التي لديه عن نفسه ، كذلك لا يمكن الحكم على عهد أنقلاب كهذا ، وفقاً لوعيه . فينبغي تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية ، وبالنزاع الذي تتعارض فيه قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الانتاج . ان أي تكوين اجتماعي لا يموت أبداً قبل ان تتطور كل القوى المنتجة التي يستطيع لها المجال ، ولا تظهر أبداً علاقات الانتاج الجديدة ، المتفوقة على القديمة ، قبل ان تنضج شروطوجودها المادية في قلب المجتمع القديم ، ولهذا ، فالانسانية لا تضع أمامها أبداً الا مسائل تستطيع حلها ، اذ انه يتضح ، عند الامعان في الامور ، ان المسألة نفسها لا تبرز الا عندما تكون الشروط المادية لحلها موجودة أو على الأقل ، آخذة في التكون » .

هذا ما تعلمنا إياه المادية الماركسية المطبقة على

الحياة الاجتماعية وعلى تاريخ المجتمع .

تلك هي الخطوط الأساسية للمادية الديالكتيكية والتاريخية .

●

بعض مؤلفات ستالين تحت الطبع

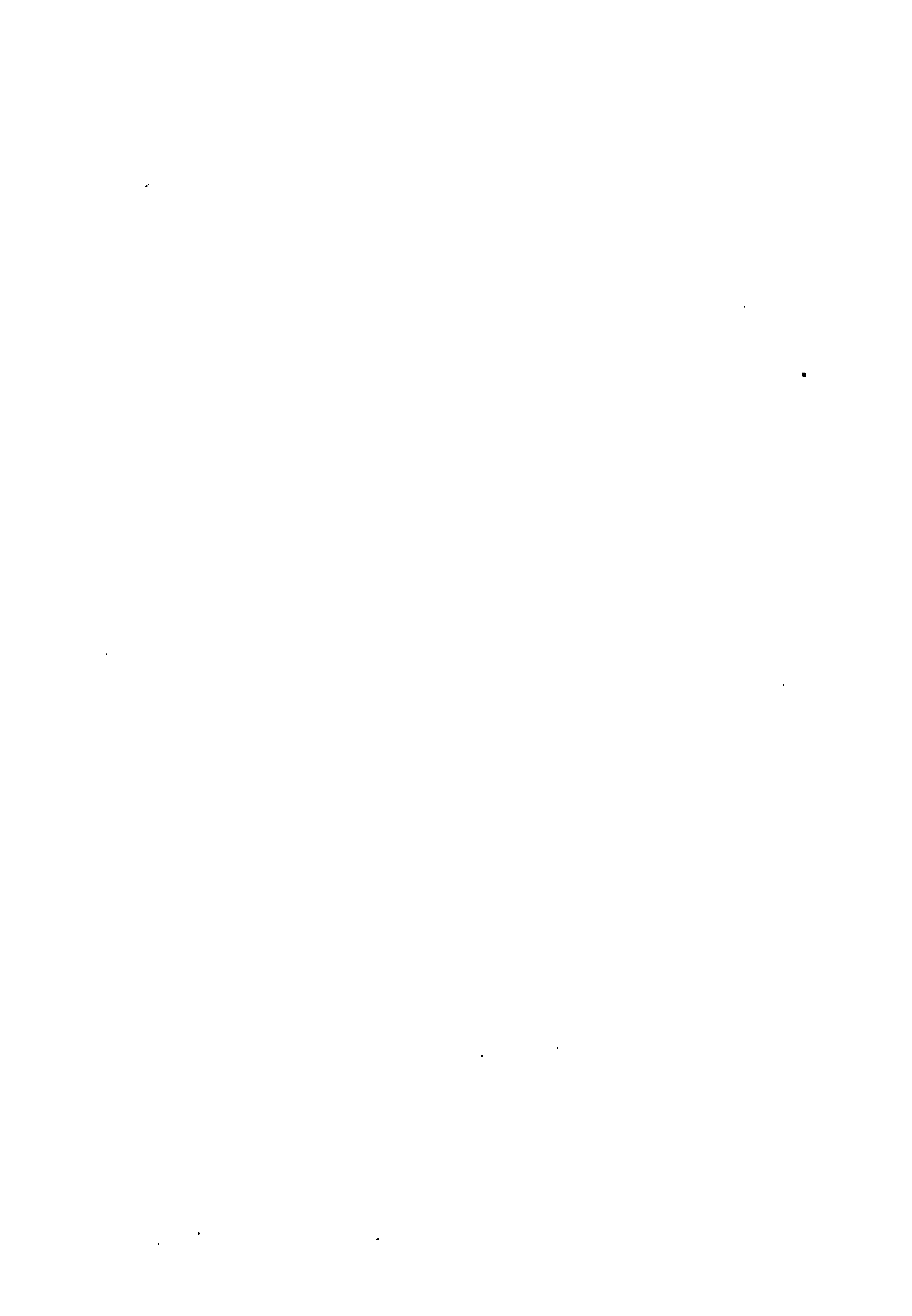
- الماركسية في علم اللغة .

- القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي

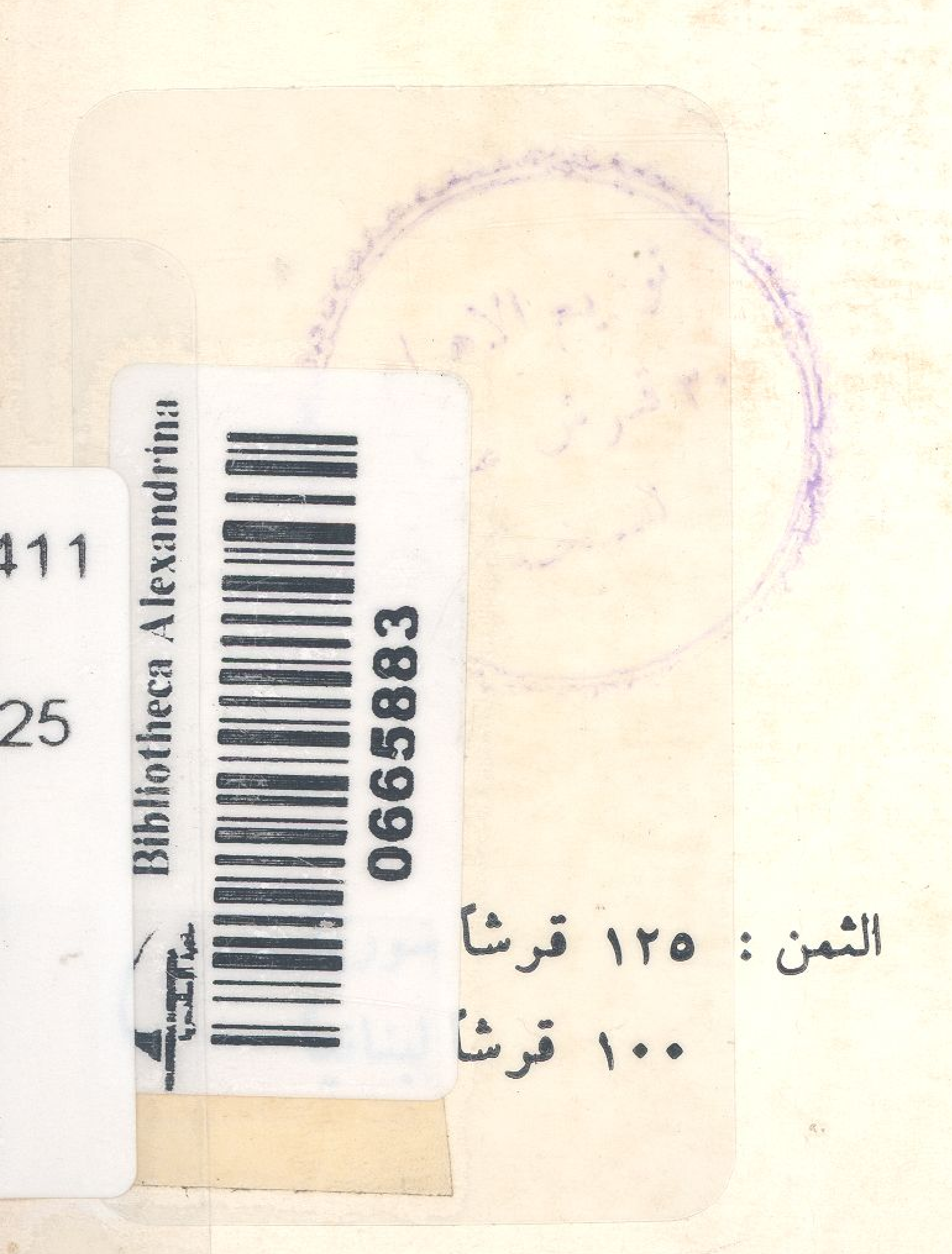
ـ في سبيل تكوين بلشفي

ـ الماركسية والمسالـــة القومية واللينينية والمسالـــة القومية ٠

ـ اسس اللينينية حـــول مسائل اللينينية







الثمن : ١٢٥ قرشاً
١٠٠ قرشاً